الدكتور أحمد الطويلي

الصداق القيرواني

الصّداق القيرواني

الدكتور أحمد الطويلي

الصّداق القيرواني

الكتاب

الصداق القيرواني

المؤلف

الدكتور أحمد الطويلي

الطبعة الأولى: 2007

ردمك: 4 - 524 - 61 - 9973 - 978 :ISBN

تم طبع هذا الكتاب وإنجازه في :

الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم

SOTEPA GRAPHIC

1، نهج محمد رشيد رضا ـ 1002 تونس

الهاتف : 933 790 71 / 380 894 71 - الفاكس : 313 790 71

مقدمة

الزواج مودة ورحمة، وقد نظمته مجلة الأحوال الشخصية التي صدرت في 13 أوت سنة 1956 واحتفلت تونس بخمسينية صدورها سنة 2006.

واهتمت المجلة بالزواج، والعلاقة بين الرجل والمرأة في إطار الزواج من أجل استمرارية الأسرة ونجاحها، ومن أجل حياة يسودها الحبّ والاحترام والوئام.

ومن فصول مجلة الأحوال الشخصية منع تعدد الزوجات منعا باتا، وأدخل فيها تعديل في 12 جويلية 1993 يقضي بوجوب الاحترام المتبادل بين الزوجين، والمعاشرة الطيبة، والتعاون على حسن تربية الأبناء عوضا عن الطاعة العمياء للزوجة إزاء الزوج.

وهذه المجلة هي في الحقيقة امتداد للروح الاجتماعية التاريخية التي كانت سائدة في بلادنا منذ القدم، وامتداد للعرف الذي كان جاريا بالقيروان وعرف بالصداق القيرواني، إذ لم يكن تعدد الزوجات مقبولا عامة في مجتمعنا التونسي الإسلامي، ونادرا ما كان معمولا به، وكانت المرأة التونسية عموما والقيروانية خصوصا تشترط أن يكون الصداق على المنوال القيرواني الذي كان جاريا به العمل منذ

الفتح الإسلامي، وكانت المرأة تشترط فيه على زوجها أن لا يتزوج عليها بثانية وإلا فهي تطلقها عليه، أو تطلق نفسها منه.

ويدل تاريخ تونس القديم على أن المرأة التونسية قدّمت الكثير من الخدمات الخالدة للوطن، فهو يعج بالنساء اللاتي اشتغلن بالسّياسة والاقتصاد والعلم والأدب، كنّ أميرات وتاجرات ومصلحات، ويقدّم كتاب المرحوم حسن حسني عبد الوهّاب «شهيرات التونسيات» نماذج من النساء ناطقة بدورهن في المجتمع التونسي القديم من حيث السياسة والاقتصاد والثقافة والأدب، ولعل بعض النساء اللواتي تناول حياتهن المرحوم حسن حسني عبد الوهاب باقتضاب تستحق تأليفا خاصا مسهبا يتعمق في هذه الخدمات، ويبين بصماتها في عمران تونس في القديم، وكذلك في السياسة والأدب والثقافة، وهي بصمات وسمت بها المرأة تونس بفضل ما تتميز به من رقة ورهافة حس وحدّة إدراك وذوق رفيع ونبوغ

لقد اعتنى المصلحون بتونس بقضية المرأة وإصلاح وضعها الاجتماعي منذ اواسط القرن الماضي، ونشير إلى رسالتين مهمتين كتب الأولى أحمد بن أبي الضياف والثانية محمد السنوسي وعنوانها «تفتّق الأكمام عن حقوق المرأة في الاسلام»، ولنا منها ترجمة فرنسية عنوانها "Epanouissement de la fleur ou Etude sur la femme en Islam" بدأها صاحبها بالثناء على المرأة ثناء ملؤه الحب والاحترام، وبين مكانتها في القرآن والسنة وعند العرب بصورة عامة، وتذكر الرسالة أن للرجل واجبات نحو المرأة فهي التي وهبته الحياة وأرضعته وربته، وقيّد الله تعالى رضاه برضاها، لذلك وجب على الرجل أن يقدّر المرأة وأن لا

يكون جلفا نحوها خاصة أمّه مهما كانت درجته في العلم والمعرفة أو ثروته وغناه. ولم يكن تطور وضعية المرأة الاجتماعية بتونس سوى امتداد للحركة الإصلاحية في القرن التاسع عشر، ويندرج في اهتمام المفكرين المصلحين التونسيين بإيلائها المكانة اللائقة بها.

يقول الطاهر الحداد الداعي الأول لمنع تعدد الزوجات : «المرأة هي أم الانسان، تحمله في بطنها وبين أحضانها، وهو لا يعي غير طابعها الذي يبرز في حياته من بعد، وترضعه لبنها، تغذيه من دمها وقلبها، وهي الزوج الأليف تشبع جوع نفسه وتذيب وحشة انفراده، وتبذل من صحتها وراحة قلبها لتحقيق حاجته وتذليل العقبات أمامه وتغمُره بعواطفها فتخفّف عليه وقع المصائب والأحزان وتجدّد فيه نشاط الحياة، وهي نصف الإنسان وشطر الأمة نوعا وعددا وقوة في الإنتاج من عامة وجوهه».

والآن لقد أضحت المرأة بتونس تضطلع بدور هام في جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، وتساهم بقسط كبير في تطور البلاد ونموها وازدهارها. تبني الحياة إلى جانب الرجل من أجل مستقبل زاهر للبلاد. وهكذا بفضل مجلة الأحوال الشخصية أضحت المرأة التونسية تحظى بما تغبطها عليه جميع النسوة في العالم العربي، ويتمنين أن يفزن بمجلة تضارع المجلة التونسية.

ويمكن أن نحوصل تطور المرأة التونسية في عهد التحول في ثلاثة مظاهر :

1) دخول المرأة التونسية في الحياة السياسية من الباب الكبير، اذ صارت تساهم في وضع التصورات السياسية والوطنية

خاصة منها التي تتعلق بها.

2) مساهمة المرأة التونسية مساهمة فعالة في النهضة الاقتصادية، اذ أصبحت عنصرا إيجابيا في المجالين التجاري والصناعي، وكثرت باعثات المشاريع الوطنية، وأدخلت تنقيحات على مجلة الشغل وأضيف فيها فصل يقرّ قاعدة عدم التمييز بين الجنسين في ميدان الشغل خاصة من حيث الأجر. ورفعت هذه التنقيحات كل الحواجز أمام المرأة وفتحت لها مجالات التخصص في المهن والحرف.

3) تمتعت المرأة بتونس بإصلاحات اجتماعية ثورية منها خاصة إحداث صندوق للنفقة لفائدة المفارقات وأبنائها في صورة تلكؤ المفارقين في تسديد تلك المبالغ.

إلا أن أهم إجراء اتخذ في العهد الجديد هو دعم مجلة الأحوال الشخصية التي صدرت في أوت 1956 ومنعت تعدد الزوجات والتزويج القصري ووضعت حدا للتطليق العشوائي.

وقد وثقنا الكتاب بخنافس لعدد من عدول القيروان وهي نوع من الإمضاءات الرسمية للعدول.

إلى أمّي القيروانيّة

أمّـــاه!.

إليك هذه الكلمات المحمّلة بمشاعر الحب، المضمّخة بطيوب الطاعة والبرّ، الموشّحة بحلل التقدير والإكبار.

أيّها الكائن العزيز الغالي الذي أوصانا الله تعالى ورسوله الكريم وأنبياؤه برعايته وحبّه وبرّه.

إنّ نعمك عليّ كثيرة وعظيمة لا أستطيع أن أفي لها بالشكر والحمد والثناء، ولا أن أقابلها بما يقاربها، فمهما فعلتُ وسعيتُ وقدّمتُ من برّ فأنا مقصرّ عاجز عن ردّ جزء قليل من أفضالك عليّ، فقد أعطيتني نعمة الحياة، ويالها من نعمة! وجعلتني أعيش في هذه الدنيا الجميلة عنصرا زكيا في المجتمع أسير كما علّمتني، وأعمل كما

وجّـهتني، وأيّ هدية تضـارع هديتك هذه! وهـي أنك وضـعت نصب عينيّ المثل العليا والمبادئ الأخلاقية السـامية، فليس لـي إلا الـحبّ يخفق به قلبي أجازيك به فاقبلي منّي هذه الباقة من التحيّـات والمبرّات رمزا لودّي وإخلاصـي، هذه البـاقة نضـّدتها لك من قبلاتي وأشـواقي وحبّي..

أمّاه !.

إن حياتي تحت ظلّـك جميلة، والدّنيا بك رائعة، إذ تكتنفينني برعايتك، وتحمينني بأدعيتك، فكما سهرت عليّ في السـابق وحضـنتني بدفئك، وغذّيتني بعطفك فأنا لا ولن أنسـى فضـلك عليّ ولا تضـحياتك ولا سـهرك الليالي الطويلة، فأنت قد جعت لآكل، وتعرّيت في الليالي الباردة كي أتدثّـر، وشـقيت كي أسـعد، وتعبت كي أسـتريح، ونـالتك الـهموم كي يحـالفني الحظ السـعيد، فلك يا أمي أن لا أكفّ عن حبّك، وعن الـوفـاء لك، فلكِ من أعماقي نداء حار، نابض بـالحياة أن يمتّعك الله بـالصّحة الوافرة، والعـافية المديدة، وطول العمر في سـعادة دائمة، وهناء رافل. فشكرا لك يا امّاه وألف طوبى وجازاك الله عنّي وعن أبنائك كل خير.

أمّاه!

عندما تكونين في المنزل تتضـوّع الطيوب، وتشرق الأنوار، وتعمّ السـعادة المكان..! أنت شـمعة مقدّسـة تضـيء ليل حياتي بتواضـع ورقّـة وحبّ. الجنّـة تحت قدميك وأي خير أعظم من رضـاك وحبّـك؟ فبرضـاك تفتح أبواب النّـعيم، وأفوز بالسّـعادة والـهناء والنجاح.

***

أي كائن أجل وأعظم من الأم؟

أي إنسان يفيض بالمحبّة والخير والتضحية مثل الأم؟

أي جمال هو جمال الأم؟ جمال الخلْق والخلُق! يقصر دونه كل جمال. ابتساماتها نور ربّاني، وكلماتها هداية سماوية، ونظراتها حماية إلهية!

كم أدين لهذه المرأة بما أنا فيه.. كانت سخّرت حياتها لأبنائها حتى أتموا دراساتهم في أحسن الظروف، وتحصّلوا على الشهائد العليا، فتزوّجت البنات، واعتلى الأبناء أعلى المراتب.

كانت تقوم باكرة من نومها، فتنهض الأولاد، وتهيء لهم فطور الصباح، وتعدّهم جميعا للمدرسة، ثمّ تأخذ في إعداد الغداء وعندما يرجع الأطفال من المدرسة حمائم بيضاء بريئة يجدون كلّ شيء حاضرا، ويتحلّقون حول المائدة يتناولون ما لذّ وطاب من الطعام.

كانت تقضي كامل اليوم في الاعتناء بأبنائها، وفي آخر السنة، حين يحين موسم الحصاد العلمي تنتظر النتائج المدرسية بكل ترقّب واهتمام، تقول لكل واحد من أبنائها حينما يرجعون من الامتحان في مادة من المواد : «بفقرها أو بغناها؟»

فيقول الولد : بغناها إن شاء الله».

***

أمي..

أعلم أنك متشوقة إلى أخباري، فاعلمي أني بخير.. لا ينقصني إلا أنت، وكلامك العذب الشيّق، والأخبار الكثيرة التي كنت تلقينها على مسمعي، أخبار عن العائلة والأصدقاء. آه يا أمّي! فراغ كبير خلّفته في قلبي وحولي وفي كل مكان.

كم كنت صبورة! وكم عانيت من طيشي وحماقاتي! وكم أنا مقصرّ، مهما فعلت واجتهدت، في إرجاع الديْن الذي عليّ لك.. فبذمّتي نحوك ديْن كبير لا أستطيع أن أرجعه لك، فلك منّي دعوات بشآبيب الرّحمة، فأنتِ الآن متمتّعة بما أسديت لأبنائك في أعلى علّيين!

رثــاء

إلى أولئك الذين كانت تمدّ لهم القهوة كلّما زاروني ويقولون : إنّها ألذّ قهوة!

إلى أولئك الذين كانوا يزورونها في الأعياد ومختلف المناسبات محمّلين بالهدايا والأماني.

إلى أولئك الذين يسألونني عنها وعن صحّتها كلّما لاقوني،

أقول لهم :

لقد ماتت أمي

ماتت سيدة النساء

أم أبرّ الأبناء!

تونس في 1995/11/23

الصداق القيرواني

عرف الصداق القيرواني باختلافه عن الصداقات في مختلف البلدان الإسلامية فإنّه يتضمّن شروطا تشترطها المرأة أو وليها على الزوج، مضمنة في جملة نجدها في كل صداق قيرواني وهي : «**طاع الزوج المذكور لزوجه المذكورة بالجعل التحريمي على عادة نساء القيروان**». فلم يكن يخلو صداق قيرواني من هذه الجملة التي تفرض على الزوج قبول هذا الشرط والالتزام بالتقيّد به إزاء زوجته.

وفي هذه الجملة كلمات مهمة ذات دلالات اجتماعية وحضارية تشير أولا الى عمل الزوج بهذا الشرط، وقد سمي هذا الشرط بالجعل التحريمي ومعناه أن مخالفة هذا الشرط ينتج عنه بطلان الزواج وتحريم العلاقة الزوجية، ونلاحظ أنّ هذا الشرط وليد عادة قديمة من عادات القيروان. والعمل بهذه العادة لا يخالف الشرع ويتماشى مع روح الشريعة السمحة.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم

صداق قيرواني قديم

فما هو «الجعل التحريمي على عادة نساء القيروان»؟ إنه يعني أن لا يتزوج الزوج ولا يتسرى على زوجته كما نجد هذا الجعل مفصلا في صداق آخر كما يلي :

«طاع الزوج المذكور لزوجه المذكورة تضمّنا لمسرّتها واستجلابا لمودتها أن لا يتزوّج عليها، ولا يتسرّى ولا يتّخذ أم ولد وأن يسكن بها مع أبيها بموضع كذا ولا ينقلها إلا برضاها، كلّ ذلك مدّة الزوجية بينهما، فإن فعل ذلك أو شيئا منه بغير إذنها ودون رضاها فهي طالق وأشهد على نفسه بذلك».

وبالإضافة الى هذه الشروط يمكن أن نجد شروطا أخرى في الصداق القيرواني، وبين يدي أمثلة عديدة، منها:

«إن كانت مخدومة وعلم الزوج المذكور أن زوجه المذكورة ممّن لا تخدم نفسها التزم إخدامها بخادم مدة الزوجية وأقرّ أنّه ممّن يستطيع ذلك وأنّ ماله يسعه وأشهد بذلك».

وفي صداق جدي الشيخ المرحوم علي الطويلي ما يلي :

«وبعد تمام العقد وانبرامه طاع الزوج المذكور لزوجه بالجعل التحريمي على عادة نساء أهل القيروان وأن لا يكلّفها طحن مؤنتها بيدها بل يستأجر لها على ذلك طوعا تاما».

ويدلّ الجعل التحريمي القيرواني على مكانة المرأة القيروانية الاجتماعية والحضارية الأثيرة، فهي مرغوب فيها منذ القديم، منذ القرن الأول الهجري.

ويحتوي صداق جدي المذكور رحمه الله هذه الفقرة التي تدل على مكانة المرأة القيروانية عبر العصور، إذ تنص على الهدية بالإضافة الى مقدّم الصداق ومؤخّره :

«تزوّج على بركة الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه وعلى منهج الشرع العزيز وطريقه الأجل المرعي الفقيه النبيه العدل أبو الحسن علي ابن المنعم المرحوم الأجل التاجر أبي الحسن علي الطويلي المذحجي الجارية البكر العذراء المصونة المسماة فاطمة بنت المنعم المرحوم سالم بن المنعم المرحوم الناسك الأبر أبي حفص عمر النخلى القصراوي بصداق سماه لها قبل البناء بها وإرخاء الستر عليها مقدّمه ستون كرونة[1]، وهديّته ثلاثماية ريال تونسية صغيرة الضرب سكّة التاريخ، وخمسة عشر مثقالا ذهبيا عبدليا وجبتان كتلان وزوج تقارط وزوج ذراري باش حانبة في مقابلة الإملاك والمواسم ومؤخره ستون كرونة كالمقدم صفة وقدرا والجميع بذمة الزوج لزوجه المذكورة على الحلول والدين المقضي لا الممطول»

فالصداق القيرواني ينصّ غالبا على الهدية بالإضافة الى المهر الذي يصرف مقدّمه عند كتابة العقد ومؤخّره عند البناءأوبعده.

وفي صداق جدّي لزوجه أن الوصي على الزوجة « توصل من الزوج المذكور بزوج جبايب كاتلان، وزوج ذراري حرير، وزوج تقارط حرير، ومايتي ريال إثنتين من الهدية المذكورة فقط واشترى منها لمحجوزته المذكورة قِمجة[2] مور بالفضة بمائة ريال فضّة سكّة التاريخ صغرى وسروال كتلان بثلاثين ريالا نحاسا، وصندوقا وربعة بخمسة وثلاثين ريالا من نحاس أيضا ومضربة اغريش(؟) محشوة بخمسين ريالا من النعت وقوفيتين[3] إحداهما بالفضة

1- الكرونة عملة إسبانية من الفضة الخالصة روّجها الإسبان بتونس في فترة احتلالهم لها مع مسكوكات أخرى مثل الدوكة. والكرونة المذكورة في عقود الزواج هي على غير معدنها الأصلي أي من الذهب والمثقال : يعادل 4,70غ من الذهب.

2 - القمجة كلمة من اللاتينية أصلها camisia وهي جبّة نسائية فضفاضة قصيرة اليدين تلبسها العروس ليلة الدخلة.

3- القوفية : غطاء سميك لرأس المرأة يطرز بالذهب والفضة ترتفع قيمته بارتفاع قيمة ما يطرز به.

وقفاها مطروز بالتلّ بخمسة وثلاثين ريالا من النعت، وفراشية صوف بيضاء بالقطن بخمسة عشر ريالا من النعت. ونلاحظ أن الصداق مؤرخ في ليلة 5 ربيع الأول سنة 1285هـ الموافق لسنة 1868م.

وديباجة الصداق، بعد البسملة والصّلاة والتسليم على محمد وآله :«إن أحسن ما نطق به اللسان افتتاحا وختما، وأبين ما سمعته الآذان نثرا ونظما حمد الله الذي وسع كل الخلق رحمة، واحاط بكل شيء علما، والحمد لله الذي علم كل شيء قبل كونه فقدره تقديرا واخترع العالم بأسره فصوره تصويرا، وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا، نحمده جل جلاله حمدا يزيد ولا يبيد، ونشكره والشكر كفيل منه بالمزيد، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد أخلص قلبه لمولاه بالتوحيد، وتبرأ من رجوحية التقليد، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله عروس المملكة الربانية، وسلطان دار المزيد، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أولي التأييد والتسديد، وبعد فإن النكاح جالب للغنى واليسار، رافع للحسب والمقدار، أمر الله به في كتابه المبين وحض عليه سيد الأولين والآخرين.

يقول محمد المقداد الورتتاني في كتابه «المفيد السنوي». [1]

«مما امتازت به القيروان ومميزات القيروان كثيرة أن أصدقة نسائهم يكتبون فيها عقب صيغة العقد : تطوع الزوج بتمليكه زوجه أمر المرأة التي يتزوج بها عليها تطلقها عليه أي الطلاق أرادت، وهي عادة متبعة خاصة بهذا البلد العتيق، وقد وقعت محاولة إبطال هذا

1ـ المفيد السنوي بتونس، مطبعة الشمال الإفريقي نهج الديوان عدد 5 تونس. ص 187 ـ 198.

الالتزام في صدر هذا القرن وتغلبت حقوق المرأة رسميا واستمر العمل بما التزم به الزوج وجرى به العمل من قديم، ومن قبل اختلف فقها هل هذا التبرع من الزوج توكيل أو تمليك؟. ورجح الثاني، وكان أهل القيروان يلتزمون أحيانا للزوجة بعدم التزوج عليها إلى مدة ثمانية أعوام وإن لم تلد فيها فلهم التزوج عليها بأخرى، وتارة يجعلون للزوجة طلاقها بنفسها متى تجاوزت غيبة الزوج أربعة أشهر».

وكان تعدد الزوجات منبوذا عموما بالقيروان لما فيه من ضرر للزوجة وما يجره من متاعب للزوج وذكر أبو علي القالي في «الأمالي» أن بعض العرب قيل له : من لم يتزوج امرأتين لم يذق حلاوة العيش. فتزوج امرأتين، ثم ندم وأنشد :

تزوجت إثنتين لفرط جهلي	بما يشقى به زوج إثنتين
فقلت : أصير بينهما خروفا	أنعم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تضحي وتمسي	تداول بين أخبث ذئبتين
رضى هذي يهيج سخط هذي	فما أعرى من إحدى السخطتين
وألقى في المعيشة كلّ بؤس	كذاك الضرّ بين الضرّتين
لهــذي ليلة ولتلك أخـرى	عتاب دائم في الليلتين



الشيخ الجد رحمه الله

زواج أبي جعفر المنصور بأروى أم موسى القيروانية بالصداق القيرواني

كان الخلفاء والأمراء العباسيون يطلبون نساء القيروان للزواج، فابن حوقل يذكر في كتابه «**صورة الأرض**» (ص 95) أنهن ولدن غير سلطان عظيم، كسلامة البربرية أم أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وقراطيس أم أبي جعفر هارون الواثق بن المعتصم، وقتول أم أبي منصور محمد القاهر بن المعتضد وغيرهم من ملوك الشرق وأمرائه.

وفي كتاب «**المحاسن والأضداد**» المنسوب إلى الجاحظ في فصل نساء الخلفاء [1] خبر عن أم موسى الحميرية القيروانية ما يلي :

«كان المنصور اشترط لأم موسى الحميرية أن لا يتزوّج عليها ولا يتسرّى، وكتبت عليه بذلك كتابا أكّدته وأشهدت عليه بذلك، فبقي المنصور على عهده حتى ماتت ببغداد فأتته وفاتها وهو بحلوان (...)

1ـ ص 117 ط 1913.

صداق قيرواني سنة 629 هـ التزم به زوج بعدم الغياب عن زوجه أكثر من أربعة أشهر وأن لا يتزوج عليها، وإن وقع ذلك تطلق نفسها وتطلق زوجته. عن كتاب «البرنس في باريس» لمحمد مقداد الورتتاني

فبقي مدة عشر سنين في سلطانه يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق وَجَـهد أن يُفتيه واحد منهم بالتزويج وابتياع السراري، فكانت أم موسى إذا علمت مكانه بادرته وأرسلت إليه بمال فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتب لم يُـفْـته حتّى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد فأتته وفاتها وهو بحلوان فأهديت إليه مائة بكر».

ويضيف الجاحظ أن المنصور أقطع أم موسى الضيعة المسماة بالرّحمة فأوقفتها قبل موتها على المولّدات الإناث دون الذكور.

ويدل هذا الخبر على أن الجعل التحريمي القيرواني كان شهيرا في المشرق، وأن هذه المرأة القيروانية كانت من الذكاء ما جعلها تلزم الخليفة بشرطها، ولها من الجمال الفائق وحسن التدبير ما جعل الخليفة المنصور يتعلق بها ويشدّ إليها.

وقد لجأ أبو جعفر المنصور إلى القيروان عندما كان مطلوبا من بني أمية وتزوج هنالك بأم موسى ابنة منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري، وهي والدة الخليفة محمد المهدي، وقد اشترط عليه أبوها عند الزواج بها الشرط القيرواني فقبله، ولم يتزوّج عليها حتّى ماتت، قال ابن الأبار في «**الحلة السِّيراء**»[1]:

«كان المنصور شرط لها أن لا يتزوّج عليها ولا يتسرّى، وكتبت عليه بذلك كتابا فعُذّب بها عشر سنين في سلطانه ثم أتته وفاتها فأهديت إليه في تلك الليلة مائة بكر».

1ـ الحلّة السِّيراء لابن الأبار، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف سلسلة ذخائر العرب، الطبعة الأولى سنة 1963 والثانية سنة 1985 ج2، ص 339ـ 340

ويدل هذا الخبر على أن توحيد المنصور في الزواج كان مشهورا إذاك في العالم الإسلامي، وأن كذلك الجعل القيرواني، وما إن توفيت أم أروى حتّى أخذ المنصور يتسرّى ويتزوّج بأخريات إذ يذكر ابن حزم في «**الجمهرة**» من نسائه فاطمة بنت محمد بن محمد وامرأة من بني أمية ويذكر أيضا أمهات أولاد.

يقول حسن حسني عبد الوهاب في الجزء الأول من «**ورقات**» :

«قد وفّى المنصور لزوجه أم موسى ما كان عاهدها عليه في عقدة الزواج، فلم يتّخذ له زوجا سواها، ولم تكن له سراري معها طول حياتها. وقد ولد له منها جعفر أكبر أولاده، ومات في حياة أبيه، وهو والد «الزبيدة» التي تزوّجها هارون الرشيد فيما بعد، وابن ثان هو محمد المهدي الذي صارت اليه الخلافة(ص 386)».

ويقول حسن حسن عبد الوهاب عن مكانة أروى القيروانية في البلاط العباسي وهي زوجة خليفة وأم الخلفاء وجدّتهم [1] :

«لم تزل أروى - أم موسى - في المحلّ الأرفع في قلب زوجها ومن إجلاله وتكريمه يرعى أولادها، ويحتفي بأهل بيتها حتّى توفّيت سنة 146هـ بعد عشر سنين من ولايته إمارة المؤمنين» (386).

ويذكر أيضا أنها كانت «من أول نساء الإسلام تفكيرا في حالة العوانس والأرامل اللاتي عضّهن الدهر بنابه» إذ أوقفت عليهن ضيعتها تلك، وأشار اليها الشاعر سلم الخاسر في مدحه للخليفة المهدي بقوله :

1ـ ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس 1964، ص385 ـ 386 وانظر «شهيرات التونسيات» لحسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار، تونس 1966 : ص 25 ـ 36.

أكرم بقرم أمين الله والده وأمّه أمّ موسى بنت منصور[2]

يقول حسن حسن عبد الوهاب عن إقامة أبي جعفر المنصور بالقيروان متخفيا [3] :

«حل أبو جعفر ضيفا عزيزا على منصور بن يزيد الحميَري، وفي أثناء مقامه شهد من وسامة أروى ما بهر بصره وخلب لبّه، فخطبها إلى أبيها وتزوّجها، وتعلّق بها أكبر التعلّق طول حياته، وقد اشترط لها أبوها في عقد زواجها ألاّ يتزوّج أبو جعفر غيرها وألاّ يتّخذ السّراري معها، فإن تسرّى عليها كان طلاقها بيدها، كما جرت بذلك عادة أهل القيروان من عهد قديم، حتى سمّيت تلك الطريقة بالصداق القيرواني».

ويفيدنا صاحب «**ورقات**» أيضا أن أبا جعفر بقي متخفياً في بيت بقصر وسط ضيعة خارج القيروان على طريق سوسة خوفا من أن يقبض عليه بنو أمية خاصة حين كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله بإفريقية يطلب منه القبض على ابن جعفر [4].

ويقول حسن حسن عبد الوهاب : «قد عُرفت أم موسى فيما بعد بأنها أم الخلائف إذ أن خلفاء بني العباس من بعد المنصور كانوا من ذاتها الماجدة، نازعين إلى تلك الأعراق البالغة من النبالة أقصى المبالغ» (ص388).

ونلاحظ أن أم أبي جعفر المنصور تدعى سلاّمة بنت بشير، وهي جارية بربرية من قبيلة نفزة التونسية، تزوّجها أبوه محمد فولدت له أبا جعفر سنة 95 بالبصرة.

2ـ نفسه: ج1. ص388.

3ـ ورقات : ج1ص 384ـ385.

4ـ نفسه : ج1.ص 385.

وجاء في كتاب «**الدولة العباسية**» للشيخ محمد الخضري عن أبي جعفر المنصور (ص58) :

«من غريب أمره أنه كان تزوّج أروى بنت منصور الحميري وهي أم ولديه محمد (المهدي) وجعفر الأكبر، وكان شرط لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرّى، وكتب عليه بذلك كتابا أكّدته وأشهدت عليه شهودا فعذب بها عشر سنين في سلطانه فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه، ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة، فكانت أروى إذا علمت بمكانه بادرته فأرسلت إليه بمال جزيل، فإذا عرض إليه أبو جعفر الكتاب لم يُفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد، فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقدة عقدها على نفسه ويريد أن يلقي تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والذمم».

وقد نشأت أروى في بيت علم وأدب وكرم، وقد ترجم ابن الأبار في «الحلة السّيراء» لوالد أروى منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري، وذكر أنه «كان شريفا في قومه، معروف المكان فيهم، مذكورا بالبلاغة والشعر وكرم الأخلاق»[1] وقال عن زواج المنصور العباسي بأروى : «تزوجها بإفريقية وهو رحل بها، وكان يطوف البلدان في زمن بني أمية، وأهل إفريقية يذكرون أنه طُلب مرّة فاستخفى في قصر صهره منصور الحميري عند قصر بشير بطريق سوسة»[2].

ويذكر ابن الأبار أن يزيد بن منصور أخا أروى لحق بأخته أم موسى، وولاه المهدي خراسان.

---

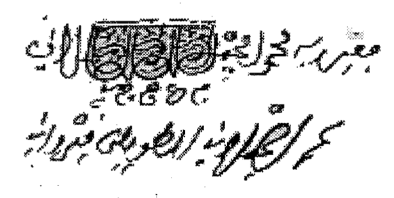
1 ـ ج2، ص 339

2 ـ نفسه : ص 339

صفحة من كتاب فقه قيرواني ينص على الصداق القيرواني

وقد مدح الشعراء منصور بن يزيد القحطاني، جد الخلفاء، ومما قاله سلم الخاسر مادحا المهدي :

أكرم بقرم أمين الله والده وأمّه أمّ موسى بنت منصور[3]



الشيخ العم رحمه الله

3ـ ص 440 وعرف سلم بالخاسر لأنه باع مصحفا واشترى بثمنه طنبورا وقيل شعر إمرئ القيس وقيل الأعشى.

الإمام البرزلي والصداق القيرواني : قضية مع زوجة

كان الجعل القيرواني معمولا به في الزواج منذ تأسيس القيروان. ففي ترجمة القاضي أبي كريب جميل بن كريب المعافري بـ «**معالم الايمان**»، وقد سمي قاضيا سنة 132هـ، نجد قضية مضمونها أنه «يوم جلس في الجامع جاء خادم لامرأة الأمير وكانت قد اشترطت على الأمير أنه متى تسرّى عليها كان أمرها بيدها، فأثبت الخادم وكالة عند القاضي، وأخذ منها طابعا وقال للأمير : يا مولاي تؤمنني، قال له : الأمان. قال : هذا طابعي من القاضي . قال : نعم. ثم مضى الأمير الى القاضي فجلس مع الخادم بين يديه، فسأله القاضي عن القضيّة فأقرّ بالتسرّي والشرط، فأمره القاضي أن لا يقربها وأشهد من حضر أن أمرها بيدها إن شاءت أقامت وإن شاءت طلّقت نفسها. فرفع الأمير يده إلى السّماء وقال : الحمد لله الذي رأيت قاضيا يحكم فيّ بالحق».[1]

ولنا أمثلة عديدة أخرى تذكرها كتب التراجم من ذلك أن زوجة الإمام البرزلي أبت أن ترحل معه إلى تونس من القيروان واشترطت

(1) «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» لابن الدباغ وابن ناجي، طبع بالمطبعة العربية التونسية، سنة 1320، ج1، ص 167 ـ 168.

عليه أن يجعل بيدها حقّ الطّلاق اذا تزوج عليها بالعاصمة «حرصا من المرأة على سلامة الزواج وضمان السعادة في البيت، إذ كانت المرأة تقاسي من الضرّة والسرايا».

يقول البرزلي في فتاويه، ولنتركه يروي قصته مع زوجته القيروانية :

«إنّي لما عزمت على الرحيل من القيروان إلى تونس أبت زوجتي أن ترحل معي إلا أن أجعل بيدها طلاق كل من أتزوّج عليها، وتعسّرت عليّ في ذلك وباينتني كل المباينة حتى أفعل ذلك، فأودعتُ عند شيخنا الفقيه أبي محمد الشبيبي - رحمه الله - وأخينا الفقيه أبي عبد الله الفاسي أن كل ما أكتب لها من جميع وجوه التملكات أو الطلاق أو غير ذلك فإنّي غير ملتزم له إذ ذكرتُ أن الرفقة مضمونة وغير ذلك من جميع وجوه الأسباب الموجبة للرّحيل، ولم يُعلم ذلك إلا من قولي.

ثمّ إنّي انتقلت بها إلى تونس وأخذت ما كنت استرعيتُه بعد أن كتبتُ لها اختيارها، وأتيت به لشيخنا الفقيه الإمام المفتي (ابن عرفة) - رحمه الله - فكتب لي تحته أنّ الاسترعاء المذكور عامل حسبما نص عليه المتقدّمون والمتأخّرون.

وكنت أخذت من هذه المسألة ومن عموم كتب التبرّعات ومن رسم عقده المتيطي في مسألة التخلّق وعدم الطواعية، وممّا ذكره ابن رشد في ذمّ امرأة دبّرت مملوكتها بعد ان استرعت أن الذي فعلته إنما هو تقية إلى غير ذلك.

ثم قُدّر بعد ذلك أن تزوجتُ وأخرجتْ هي ما بيدها وقَدّمْتُ أنا إخراج ما بيدي لمن بيده القضاء من أصحابنا فأبطلوا ما بيدها من ذلك بما استرعيتُه في يدي من رسم الاسترعاء وتصحيحه، فكتب

المفتي بصحته وكان شهود الاسترعاء هم شهود التمليك وكذلك ينبغي فهو أحسن». [1]

وفي «**رسالة التمليك**» لمحمد بن عظوم القيرواني أنّ البرزلي فسّر وضعه بأن قال «إنّما كتبت لها تطوّعا وقصدت به التوكيل لا التمليك وقد عزلتها عن التوكيل»، وأنه فعل ذلك «تضمّنا لمسرتها واستجلابا لمودّتها» وجلبا لمحبتها وميلها إليه.

ونشر المرحوم محمد البهلي النيال مقالة عنوانها «قصة الصّداق القيرواني ومنزلته من التاريخ والفقه»، في مجلة الندوة، العدد 4، السنة 2، جوان 1954 بيّن فيها كيف كان فقهاء السلف يؤكّدون عرقلة تعدّد الزوجات، ويؤكّدون الاكتفاء بواحدة، فقد وقف على بعض أسفار كانت محفوظة بالمكتبة العتيقة بجامع القيروان مكتوبة على الرق وبالخط الكوفي وخطها مؤرخ في محرّم سنة 446. وهذه الاسفار من **العتبية** أو **المستخرجة** من تأليف عمر بن أحمد العتبي القرطبي المتوفّى سنة 255هـ ، فقد روى العتبي عن مالك ما يلي :

«سئل مالك عن رجل كانت له امرأة غائبة فتزوج امرأة فقدمت الغائبة عليه فجزعت من نكاحه إياها عليها، فقال لها : لم تجزعين؟ يوم أختارها عليك فطلاقها بيدك، فطلّق الغائبة التي تزوّج عليها والتي جعل الأمر في يدها، قال مالك : **ما أرى طلاق الأخرى إلا بيدها وأرى أنه قد اختارها عليها حين طلقها**».

ولاحظ محمد البهلي النيال أن قصة البرزلي ذكرها الشيخ جعيط في كتابه «**الإجراءات الشرعية**» بالجزء الثاني، ص143 معقبا

---

1 ـ فتاوى البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، للإمام الفقيه أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي المتوفى سنة 841هـ / 1438م، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، وانظر عن البرزلي كتابنا «الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي» ج1، ص 255 ـ 257، ودراسة محمد الحبيب الهيلة : النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، س1، ع7، (1971)، ص 188 ـ 189.

أن البرزلي استرعى لاتقاء الضرر من زوجته أنّ ما تطوّع به لزوجته لا يلزمه، وبعد انتقال البرزلي من القيروان إلى تونس مع زوجته تزوّج عليها بأخرى، «فأخرجت المرأة ما بيدها فأبطله الحاكم بما في يده».

وقد لاحظ محمد بن فندار المعروف بابن عظوم في مسألة التمليك أن دعوى «التوكيل لا يلتفت اليه وهو لغو ويحمل على مقتضى العرف العام والعادة الشاملة لأهل الموضع، ويحمل على ما يعمل في ذلك في النكاح على الشرط لا على الطوع، وما هو على الطوع لفظا وقصدا محمول على التمليك اللازم»[1] .

وهكذا فإن أبا عبد الله محمد بن فندار المرادي القيرواني المعروف بابن عظوم قد دافع عن شرط الصداق القيرواني، وهو موضوع كتابه في الدفاع عن الصداق القيرواني ويقول :

«واما إذا كان الكتب على الطّوع، والتبرّع بعد مضي زمن البناء، وانقطع الزوج عن جهة الشرطية بوقوع ذلك منه في زمن ثان، فإنه يصح له الإيداع حينئذ، وهي مسألة شيخنا العلامة أبي القاسم البرزلي رحمه الله تعالى في ما كتبه لزوجته حين نقلته إلى تونس، فلم تساعفه زوجته على ذلك وخشيت أن يتزوج عليها هنالك فجعل بيدها طلاق من يتزوج عليها، وأودع فيه كفعل الزوجة في الواقعة، وكتب له فيه شيخنا الإمام ابن عرفة رضي الله عنه : هذا إيداع صحيح على مقتضى نصوص المتقدّمين والمتأخرين» (ص98).

ويعلق ابن عظوم بما يأتي : «فأقول : ذلك اللفظ منفرد بمعنى التمليك ويقوّي ذلك ما اقترن به من العرف والقرائن المعنوية واللفظية

---

1 ـ انظر ص56 من كتاب «رسالة التمليك أو إرشاد الراغب في العلم بالتحقيق في مساواة الشرط الطوع في التمليك بالتعليق»، تحقيق محمد الطاهر الرزقي، مكتبة الرشد بالرياض وشركة الرياض للنشر والتوزيع، الرياض 1998.

من قوله : «تعمدا لمسرتها واستجلابا لمودتها» والعرف شاهد بأن أهل الموضع لا يعرفون بذلك اللفظ معنى التوكيل ولا يقصدون به لا غالبا ولا نادرا وإنما يعرفون أنه مقصور على معنى التمليك لا على معنى المنفرد ولا على معنى آخر، وكالة، ولا غيرها، فلا يقبل قول الزوج في قصده بذلك اللفظ التوكيل كمخالفته لدلالة العرف والقرائن والألفاظ وشواهد الأحوال وطول الدهر والزمان (...) وعلى الجملة والتفصيل الحق فيها مع الزوجة المجعول عصمة المتزوجة عليها بيدها» (ص98).

ثم ينتقد ابن عظوم شديد الانتقاد قصد التوكيل في تمليك عصمة المرأة الثانية في يد المرأة الاولى لما ينجر عن ذلك من هرج وفتنة، ومن ضيق وحزن ونكاية بالمرأة الأولى، «ولا ترضى ذلك واحدة من مائة» فالقول بالتوكيل عنده «لا يلتفت إليه إذ هو قول باطل» (ص99).

وهذه الرسالة مهمة جدا لأنها تدافع عن الصداق القيرواني والشرط الذي تشترطه المرأة أو يشترطه الولي على الزوج وهو أن لا يتزوّج عليها بامرأة ثانية وإلا فهي تحرم عليه ويمكن لها أن تطلقها عليه. وقد صدرت هذه الرسالة في الرياض تحت عنوان «**رسالة التمليك أو إرشاد الراغب في العلم بالتحقيق في مساواة الشرط الطوع في التمليك بالتعليق**»، واسم المؤلف هو أبو عبد الله محمد بن فندار المرادي القيرواني الشهير بابن عظوم، بتقديم وتحقيق الدكتور محمد الطاهر الرزقي.

وابن فندار من أسرة اشتهرت بالعلم والفتيا والقضاء والإشهاد بالقيروان وهو من علماء القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي إذ كان حيّا سنة 889هـ / 1484م.

نذكر من شيوخه البرزلي والزغبي وهما من أشهر فقهاء إفريقية في عصرهما، ومن أشهر تآليفه «**الدكانة**»، وعنوانها «**تذكير الغافل وتعليم الجاهل**»، موضوعها حكم قاض قضى بهدم دكانة ملاصقة لحانوت محبّس على رجل بسوق العطارين بالقيروان وهذا الحكم تسرع فيه القاضي وقدمت القضية من جديد إلى قاضي الجماعة فحكم بإرجاع الدكانة إلى ما كانت عليه وإلغاء حكم القاضي السابق.

ويعتبر كتاب «**الدكانة**» مصدرا من مصادر القضاء وقد ضبط المحقّق تسعة وعشرين عنوانا من تآليف أبي عبد الله عظوم المرادي جلّها ينتظر التحقيق والنشر لقيمته الوثائقية والتاريخية والاجتماعية والفقهية.

أما «**رسالة التمليك**» فهي هامة بالنسبة إلى مسألة ما كانت تتمتع به المرأة القيروانية من مكانة رفيعة في المجتمع القيرواني. فالمؤلف يدافع عن مبدإ تطوع الزوج بأن لا يتزوج على امرأته بثانية، فقد أراد زوج أن يبطل شرط زوجته بدعوى أنه وكلّها على نفسه في تطليق زوجته الثانية، وأنه الآن أبطل التوكيل، يدافع المؤلف عن الطوع بأنه ليس توكيلا للمرأة في ذلك وإنما هو تمليك، واعتمد على مبدإ مدّون في مدوّنة الإمام سحنون، وهو : «من لزم نفسه معروفا لزمه»، وكل معروف صدقة، وعلى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «أحق الشروط أن يوفى بها ما استحللتم به الفروج» لذلك أوجب الوفاء بهذا الشرط وهو مباح. (ص55) و يحمل الصداق القيرواني «على مقتضى العرف العام والعادة الشاملة لأهل الموضع ويحمل على ما يعمل في ذلك في النكاح على الشرط لا على الطوع، وما هو على الطوع لفظا وقصدا محمول على التمليك اللازم»(ص56).

والمقصود بالطوع والشرط في تمليك الزوجة أمر الزوجة الثانية الضمان لمسرتها والاستجلاب لمودتها «**بما يوجب عظيم الميل منها إليه والمحبة له لأن من أعظم ما تحبه المرأة من زوجها قصر وجهته عليها وعدم ميله عنها، ونفي المشارك لها في نفسه وماله، والغيرة في ذلك أمر طبيعي لا تستطيع المرأة الانفكاك عنه والتخلص منه وكثيرا ما تقتل المرأة نفسها وأما كثرة الغثيان والصرع واختبال العقل وذهاب التمييز في كثير من الأوقات فكثرة وجوده أظهر من أن يقام عليها برهان**»(ص57).

تتجلى من هذه الفقرة بل من الكتاب نفسه النظرة التحليلية لعلاقة الزوجة بزوجها، والتعمق في بيان نفسية المرأة والضرر النفساني والاجتماعي المنجر من تعدد الزوجات.

ويدافع المؤلف عن مبدإ الحضانة للأم فيعلل حضانتها بأن الرحمة تكون لمن قويت رقته وعظمت شفقته واشتد عطفه (ص67).

وفي هذه الرسالة يتهجم أبو عبد الله محمد ابن عظوم على القاضي الذي حكم لفائدة الزوج بأن يتزوج بثانية بدعوى أن طوعه هو توكيل لا تمليك فيصرخ في وجهه قائلا :

«**العرف شاهد بأن أهل الموضع لا يعرفون بذلك اللفظ معنى التوكيل ولا يقصدونه به لا غالبا ولا نادرا وإنما يعرفون أنه مقصور على معنى التمليك**» (ص98). ويستخلص الفقيه القيرواني أنه «على الجملة والتفصيل الحق فيها مع الزوجة المجعول عصمة المتزوجة عليها بيدها، ولو عرف في العرف استعمال ذلك اللفظ في التوكيل أو إطلاقه عليه ولو نادرا لكان فيه من الخصام وانتشار الدعاوى ما يكثر الهرج والفتنة لما في نفوس من يكتبه من الأزواج من

شديد الضيق والحزن والنكاية مالا يظن وقوعه، ويقع من الأزواج طلب الزوجات بإسقاطه بالإعطاء على ذلك ما يرضيهن من الدنانير والحوائج وغير ذلك ولا ترضى بذلك واحدة من مائة»(ص 98- 99).

يمثل هذا الكتاب وثيقة مهمة عن وضعية المرأة القيروانية في المائة الهجرية العاشرة، وعن دفاع الفقهاء عن إبطال الزواج بثانية، والاكتفاء بواحدة استجلابا لمودة المرأة وسرورها وهنائها، وهو من النصوص ذات الفائدة الاجتماعية والتي تبرر المصلحة العامة فقهيا ودينيا.



عقد زواج قديم

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيئين والمرسلين، وعلى آله وصحابته وأزواجه الطاهرين، من يومنا هذا إلى يوم الدين، والحمد الله الذي أباح لنا بفضله محمود النكاح، وحرّم علينا بعدله مذموم السّفاح[1]، وخلق من الماء بشرا، فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا.

وبعد فقد تزوّج على بركة اللّه تعالى وحسن عونه وتوفيقه الشامل المكرّم الأجل الحظي الأمثل الفقيه النبيه خلف الله بن المرحوم سليمان غيلان وبه عُرف القيرواني مخطوبته البنت البكر العذراء اليتيمة البالغة في سنها الآن وفي حجر شقيقها المرابط الأصلح الفقيه السيد الجليل محمد وتحت ولاية نظره السيدة الشريفة المصونة، والدرة النفيسة المكنونة، ذات الحسب والنسب والجمال، والعفة والقدر والاعتدال، المسماة فايزة صان اللّه حجابها، ويسّر في الدارين أسبابها، ابنة المنعم المرحوم المرابط الأصلح بلقاسم ابن المرحوم السيد محمد زعفران القيرواني، كان من سكان بلد لمطة من حفدة الشيخ البركة الولي الصالح، والزناد القادح، العلم الهمام، والأسد الضرغام، الغوث الشهير، سلالة الأفاضل السيد الشريف

1ـ السّفاح : الزنى.

الحسيني، الكوكب الفايح، والسراج اللايح، والبرهان الواضح، صاحب الكرامات الظاهرة، والإشارات الباهرة، المعتقد في حياته، المزار بعد وفاته، ولي الله تعالى أبي حفص سيدي عمر زعفران الداخل ضريحه محروسة سوسة، وقبره الشهير الأنور مرتسم بها يزار، نفعنا الله ببركاته، وأعاد علينا وعلى جميع المسلمين من شبوب سحايب خيراته، آمين، بصداق سماه لها وبه إن شاء الله يملك أمر عصمتها جملة مقدّمه قبل البناء بها وإرخاء الستر عليها أربعة أرطال فضة تونسية الطبع مصارفة، كل رطل أربعة وستون ريالا، مع ثلاثين مثقالا ذهبا عبدليا مصارفة، كل مثقال خمسة ريالات مع أوقية واحدة جوهرا، عوضها ماية ريال واحدة، مع أربعة قراطيس من عمل تونس. وهي قمجة[1] حرير المسماة بالطابع وبدية وكشف حلي كلاهما من حرير، وناصية فضة بثلاثة أفراع عوض الجميع خمسون ريالا مع أمة وخش من متوسط الرقيق الأسود في القيمة والسن، عوضها ثلاثماية ريال مع ماية واحدة ريالا هدية لها تستعين بها على شورتها. الجميع من سكة التاريخ بتونس حرسها الله تعالى، مع عباءتين اثنتين من صوف أبيض من عمل القيروان عمرها الله بدوام ذكره كما هي الآن. فهذا تمام المقدم المذكور وكالئه[2] خمسة وعشرون دينارا من النعت، الجميع بذمة الزوج المذكور لزوجه المذكورة بالحلول عليه عدا الكالئ المذكور فمؤجل عليه لها لمضي عشرة أعوام آتية من تاريخه.

عقد نكاحها منه بذلك عمها المكرم الأجل الفقيه النبيه العدل

1ـ القمجة : دخيل من اللاتينية (Camisia) وهي جبة نسائية فضفاضة قصيرة اليدين، كانت تلبسها العروس ليلة الدخلة

2ـ الكالئ : الدينْ، ومنه نهى عن بيع الكالي بالكالي أي بالنسيئة.

الرضي الأعدل المرابط الأصلح السيد الشريف أبو محمد حسن زعفران بإذنها ورضاها وتوكيلها إياه على ذلك وتفويضها ذلك إليه بعد أن أعلمها بالزوج بعلا وبالمسمى نقدا وكالئا، فرضيت بذلك بصريح نطقها الرضاء التام.

سمع منها جميع ذلك شهيداه في التاريخ إذ هي بنت بكر عذراء يتيمة، بالغة في سنها كيف ذكر في حجر شقيقها المرابط محمد، وتحت ولاية نظره بموجب تقديم شرعي له عليها من قبل من سلف من قضاة المنستير سددهم اللّه تعالى. كل ذلك برضاه وموافقته إياها على ذلك رضى وموافقة تامين، وهي مع ذالك صحيحة العقل والبدن، خلية من كل داء وجنون وسكن، حل للنكاح، خلية من زوج، ومن الموانع الشرعية، وفي غير عدة بذكر وليها.

وحضر الزوج المذكور وقبل النكاح المذكور أتم قبول، راجيا من الله تعالى حسن المأمول، أبرمه وأمضاه وارتضاه، وألزم نفسه العمل بموجبه ومقتضاه، فتم بينهما هذا النكاح المبارك وانعقد وانبرم، بكلمة الله تعالى العلي العظيم الأعظم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد أفضل من علِم وعلّم، وأفصح من نطق وتكلم، وعلى آله وصحبه وسلم. وصارا بذلك زوجين إثنين إلفين متفقين على الأمانة والأمان، وما جاء في محكم القرآن، من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، «ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما».[1]

وأورد الزوج المذكور لزوجه المذكورة ليلة بنايه بها على يد عمها وكيلها المذكور زوج خلخال وفنجالا ومكحلة معدة لاكتحال العينين، الجميع فضة، زنة الجميع رطل واحد وإحدى عشرة أوقية

1ـ قرآن : الفتح، الآية 10.

مصارفة، الجميع ماية واحدة ريالا وثمانية ريالات مع زوج مقياس وزوج ونايس وزوج خواتم، الجميع ذهبا كرونة[1]، زنة الجميع خمسة وثلاثون مثقالا مصارفة، الجميع ثلاثماية ريال وخمسة عشر ريالا مع قفطان أسود موبرّ مطروز بالفضة المسمى غولا عوضه مايتان ثنتان ريالا إلا ريالين مع قمجة بيضاء مطرزة كلها بالحرير الأبيض، مع جبة كاتلان، عوضهما ستة وأربعون ريالا، مع حزام حريرا أحمر مثقلا بالفضة عوضه ستة وثلاثون ريالا، مع زوج قوافي[2] بالفضّة، والشريط، مع محرمة خضراء من حرير كاتلان مكللة بالبوندرا[3] مع محرمة أخرى قهوة مطلوقة، مع زوج تقارط حرير، مع ذرّاية سنا نقلي(؟)، مع زوج بشاكر عوض الجميع ستة وخمسون ريالا. الجميع تونسية الضرب رواج (...)[4] الورود التام، بل مع جميع العباءتين المذكورتين الورود التام. وأورد جميع ما ذكر الولي العم المذكور لحفيدته موكلته الزوجة المذكورة الورود التام.

وبرئت ذمته وذمة الزوج المذكور من الواصل المذكور البراءة التامة، وما سوى ذلك باق بذمة الزوج المذكور لزوجه المذكورة على الحساب بينهما بالحلول عليه عدا الكالئ بمؤجل عنه لها لأجله المذكور فيه لا براءة له من ذلك إلا بالدفع (...) وما تبرأ به الذمم شرعا طال الزمان أو قصر. وشهد عليهم بذلك وكلهم بحال صحة وطوع و... أمر عدا الزوجة بجواز أمرها في النكاح خاصة. وعرفهم حين حلول

1ـ كرونة : عملة اسبانية من الفضة الخالصة روجها الأسبان بتونس في فترة احتلالهم لها وهي عبارة عن درهم من الفضة الخالصة غير مستوي الأطراف.

2ـ ج. قوفية : وهي غطاء سميك لرأس المرأة يطرز بالذهب والفضة.

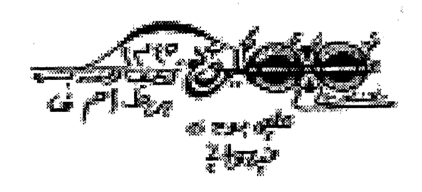
3ـ لعلّـه نوع من الدنتيل.

4ـ الفراغ كلمات مطموسة.


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

عقد زواج قيرواني قديم

الزوج المذكور ببلد لمطة بتاريخ (...) شعبان المكرم سنة 1205 خمس ومايتين وألف، وتأخر الكتب ووضع الأشهاد عقدا(...) وبناء الزوج المذكور لزوجه المذكورة لأوايل قعدة الحرام من السنة 1205 المذكورة فيه   ونلاحظ أن إسمي العدلين غير ظاهرين وأن سنة 1205هـ تقابل سنة 1790م.



من عادات الزواج بتونس

من العادات والتقاليد الخاصة بالزواج بتونس نذكر الخِطبة، والملاك، وكتب العقد، والفرش، والوطية، والزفاف.

فالخِطبة بكسر الخاء هي طلب الزّواج بامرأة، وهي الوسيلة التي يبدى بها الراغب في الزواج طلبه، وتتمّ بعد تمام الرِّضى والاتّفاق، وفيها يعبرّ الخاطب عن نيّته الصّادقة في الزواج، وتعبرّ المرأة عن القبُول الحسن، ويلتزم الإثنان بالرّباط المقدّس والوفاء القائم على الاطمئنان، كلّ إلى الآخر، وهما على علم بحال بعضهما بعضا وبالقدرة على تحملّ أعباء المسؤولية الاجتماعية كاملة، المادية والنفسية والروحية.

وتقع الخِطبة عموما من أب العريس أو عمّه وعددٍ من الأقارب أو المعارف خاصة منهم الشخصيات المعروفة الممثلين بالبلد.

وفي الماضي كان التقليب قبل الخطبة إذ تذهب أمّ العريس أو قريبته إلى دار المخطوبة، وتتمّ رؤية البنت ثم يقع إعلام الخاطب بصفات الخطيبة وحين يوافق الرجل وترضى المرأة تقع الخِطبة الرسمية. فيقصد وفد دار الخطيبة في يوم متفق عليه ويتولّى أحد الحاضرين الممثلين للعريس القول لأب العروس أو وليها :

«جئناك خاطبين راغبين في بنت الحسب والنسب»، فتتمُّ الموافقة، وتقرأ الفاتحة، ثم توزّع المشروبات خاصة الرّوزاتة وهي عصير اللّوز، وتقدّم الحلويات المتنوّعة فرحا بالخِطبة والزّواج القادم وتخرج الخطيبة إلى الحاضرين وقد لبست أحسن لباسها، والحياء مرسوم على وجهها، والبسمة مطبوعة على شفتيها.

وبعد إتمام مرحلة الخطبة في ظروف يسودها الفرح والابتهاج يتم الاتصال بين العائلتين لتقع مراسم كتب العقد. فيتمّ الكتب إما عند شاهدي عدل يحضران في بيت الخطيبة في يوم معيّن بمحضر من أفراد العائلة والأحباب، أو يتمّ في أحد المساجد أو الجوامع بمحضر كثير من المدّعوين ثم تقع قراءة الفاتحة، وتوزع المشروبات، والرّشّ بماء الزّهر، ويقدم نوع من الحلوى وهو القُنفيد، ويكون قدوم الحاضرين استجابة لاستدعاءات مطبوعة موزّعة قبل أيّام لحضور حفل عقد القران، وغالبا ما يتمّ العقد اليوم بقصور البلديات إذ يتولى ضابط الحالة المدنية الإشراف على الحفل بحضور شاهدين ويسأل العريسين هل هما موافقين على الزواج، فيجيبان والبسمة تعلو شفاههما بالموافقة التامة.

ثم يقرأ عليهما ضابط الحالة المدنية الفصل 23 من مجلة الأحوال الشخصيّة وهو :

«على كل واحد من الزّوجين أن يعامل الآخر بالمعروف ويُحسن عشرته ويتجنّب إلحاق الضّرر به. ويقوم الزّوجان بالواجبات الزّوجية حسبما يقتضيه العرف والعادة ويتعاونان على تسيير شؤون الأسرة وحسن تربية الأبناء وتصريف شؤونهم بما في ذلك التعلم والسّفر والمعاملات المالية، وعلى الزوج بصفته رئيس العائلة أن ينفق على الزوجة والأبناء على قدر حاله وحالهم في نطاق مشمولات النّفقه، وعلى الزّوجة أن تساهم في الإنفاق على الأسرة إن كان لها مال».

كما يقرأ ضابط الحالة المدنية الفصل 24 وهو أن لا ولاية للزّوج على أموال زوجته الخاصة بها.

وبعد قراءة هذين الفصلين تقرأ الفاتحة في جوّ مرح يسوده الابتهاج ويطغى عليه الفرح، وبالطّبع يكون العقد قد حرّر بعد توفّر رضا الزّوجين وإشهاد شاهدين من أهل الثقة بأنّ الزوجين خاليين من الموانع الشّرعية والقانونية للزواّج، ويقع ذكرُ المهر، وغالبا ما يكون رسميا ديناراً، تشهد الزوجة أنّها قبضته، وفي بعض الأحيان يقدمه لها الزوج أمام الحضور، وتحتفظ به الزوجة كذكرى يوم فرح وحبور وتحقيق أمنية غالية في نفسها.

ومن العناصر الجوهرية في الزواج المهر، وهو في الحقيقة يمثل الجانب الرمزي النفساني في العلاقة المقبلة بين الزوجين، فبه يطمئن الزوج الزوجة حتّى تشعر أنها محل الرعاية منه وتحسّ بأنها موضع العناية عنده، والمهر عربون محبّة ووعد بحسن المعاملة وطموح الى أن تكون العلاقة الزوجية مثالية في السلوك الطيب.

ويذكر القاضي محمد الحبيب الشريف في كتابه «**مجلة الأحوال الشخصية**» أن تسمية المهر شرط من الشروط الاجتماعية للزّواج، قد «جرت به العادة والتقاليد منذ أقدم العصور في حين يعتبره البعض الآخر من الشروط النفسيّة للزواج، إذ يقصد الزوج من خلال الالتزام به التّودّد إلى الزوجة واستمالتها لطمأنتها على وضعه المادي، وبالتّالي على مستقبل حياتها معه، خصوصا وأنّ واجب الإنفاق محمولا عليه منذ الدّخول بها (ص21)».

ومنذ الاستقلال أصبح المهر رمزيا دينارا واحدا تشجيعاً على الزواج، وتصدّيا للتبذير والإسراف، والتباهي بمهر مرتفع يعرقل الزواج، ويمنع الشباب من الخروج من العزوبية.

ويلاحظ عدد من الكتاب النتائج السيئة للمهر المرتفع، يقول عثمان الكعاك في كتابه «**التقاليد والعادات التونسية**» إنّ هذه العادات «تدعو إلى تكاليف ومصاريف وفيها بدع خارجة عن السنّة، وصار الزّواج يتعذّر على الكثيرين ويحدو الكثيرين إلى التّدايُن أو حتّى الإفلاس، ولذلك قاومته حكومة الاستقلال بما فيه من بدع وصيّرته على السنّة، وجرّدته من مظاهر المباهاة ومن المغالاة في المهور ومصاريف المآدب، وفي الأكثر يكون الزّفاف على غاية البساطة وبإثر الدخول يذهب العروسان لقضاء شهر العسل في رحلة زفاف»[1].

---

1 ـ عثمان الكعاك : التقاليد والعادات التونسية أو الفلكلور التونسي، الشركة القومية للنشر والتوزيع، تونس 1963، ص 89.

إن تيسير الزواج مطلب اجتماعي أساسي والتخفيف عن الزّوج من مبادئ السنّة المحمدية السمحة. فقد جاء في السيرة النبوية الشريفة عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال :

«إن من يُمن المرأة تيسير خِطبتها، وتيسير صداقها، وتيسير رَحِمها» رواه أحمد وأبو نُعيم وفي رواية أخرى : «من يمن المرأة تسهيلُ أمرها وقلّة صداقها».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : إنّي تزوجت امرأة من الأنصار. فقال له النبي صلّى الله عليه وسلّم : هل نظرت إليها، فإنّ في عيون الأنصار شيئا.

قال : قد نظرتُ إليها.

قال : على كم تزوجتها؟

قال : على أربع أواق[1]

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على أربع أواق فكأنّما تنحِتون الفضة من عرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى أن نبعثك في بَعْث تصيب منه.

قال : فبعث بعثا إلى بني عبس، بعث ذلك الرجل فيهم (رواه مسلم).

هكذا كره الرسول صلى الله عليه وسلم المهر المرتفع ودعا إلى

1 ـ أي أربع أوقيات من فضة.

تخفيفه وتيسير الزواج، لأنّ الله لا يحبّ المسرفين ويحبّ مراعاة الحال، وعدم إثقال النّفس بالتكاليف الباهضة التي قد تسبّب الحسرة والضيق والتداينُ وعسر العيش.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما تزوّج عليّ فاطمة رضي الله عنهما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطها شيئا، قال : ما عندي شيء!

قال : أين دِرعُك الحُطمية؟[1].

قال : هي عندي.

قال : فأعْطها إيّاه!

وورد جزء من الحديث منسوبا إلى علي رضي الله عنه قال : «فأعطيتُها إياه»، روى الحديث أحمد والنّسائي وأبو داود وغيرهم.

وفي طبقات ابن سعد أنّ عليّاً رضي الله عنه تزوّج فاطمة رضي الله عنها على إهاب كبش وسحق حِبرة [2] وكان فراشُها جلد كبش إذا أرادا أن يناما قلباهُ على صوفه ووسادتهما من أدمٍ [3] حشوُها ليفٌ،

قال ابن سعد في طبقاته[4] قال علي رضي الله عنه : لقد تزوجْتُ فاطمة ومالي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه النّاضح[5] بالنّهار [6]

1ـ الدّرع الحطمية هي التي تحطّم السيوف وتكسّرها وهي العريضة الثقيلة.

2ـ الحبرة هي بُرْدةٌ، مخطّطة ، والبُردة لم تكن جديدةً وكانت خلقةً بالية.

3ـ الأدمُ : جلد مدبوغ.

4ـ ج8،ص21.

5ـ الناضحُ هو البعير الذي يستقى عليه الماء.

6ـ أنظر كتابنا «زواج فاطمة الزهراء» وهو تحت الطبع.

الملاك

بعد أن تتمّ الخطبة وهي المرحلة الأولى من الزواج يقع الإملاك أو الملاك كما يسمّى بتونس وهو حفلة يقدّم فيها العريس هدايا للمخطوبة في موكب بهيج، وتُهدَى للخطيبة «كنسترو» وهو آنية من سعف يكون أحيانا مغلفاً بالفضّة يحتوي على قِطع من المصوُغ وقوارير عطر وحنّاء ومرُطبات خاصة قطعةً مركّبة من ثلاثة إلى سبعة طوابق محلاة بأنواع الزّينة قد رُسم فيها من فوق إسما الخطيبين ويستقبل أهلُ الخطيب بالزغاريد والشربات خصوصا الروزاطة، وهي عصير من اللّوز أبيض اللون، تكون بيضاء وحلوة لتكون حياة الزوجين صافية عذبة كلّها سعادة وهناء.

وفي حفلة الإملاك في القرون الماضية كان الخطيب يهدي إلى خطيبته صندوقا صغيرا مجلدا بصفائح الفضّة أو من خشب مرصّع بالصّدف يحتوي على المهر، ويكونُ مصروراً في مناديل من حرير مخلّط بالفضة، وصندوقا آخر أصغر من الصندوق الأول من نفس النوع يحوي قنّينات عطرٍ، وأنواعا من البخور مثل العنبر والقماري، وبالإضافة إلى ذلك يُهدي الخطيبُ ورق الحناء لأن الحنّاء رمز للبركة واخضرار الحياة والسّعادة في مستقبل الأيام بعد الزّفاف. ويهدي الخطيب أيضا خاصة قطعة من المصوغ مكللة بأحجار ثمينة وعددا من الشمع خاصة شمعةً كبيرة في شكل خُمسة أي في صورة كف للبركة.

وممّا كان يُهدى أيضا إلى الخطيبة قوالبُ السكّر الكبيرة الحجم وطوابع العنبر وعودِ القمارى وفواشك مياه الياسمين والورد والزهر لتعطير الزّوار. كما يُهدِي العريسُ إلى عروسه قطعةً من النّسيج لتُخاط كسوة أو كسوات لها، وعدداً من التّقارط الحريريّة أو من الحرير

المنسوج بالفضة، ويُهدي أيضا مرآة من فضة أو صدَف وصحن من فضّة للحِنّاء وكيسين من حرير قد زيّنا بالفضّة لتضع فيهما الخطيبة يديها إثر الحناء.

يقول الصادق الرزقي في كتابه «**الأغاني التونسية**» «فجميع هذه الأشياء تزخرف وتنظّم وترصّف بالكنستْرُوات المبطنة بالقُطن، المكسوة بالنّسيج الحريري الأخضر أو الأحمر ثم إن جميع الأشياء المذكورة ترفع بواسطة الحمّالين وعلى أكفّ السّودانيات بالتعشيق والولولة إلى دار البنت، ثم بعد حين تلتحق بالإملاك جماعة الزّوج من النّسوة كوالدته وقريباته ومن عساهنّ دُعين لهذا الغرض، فيمكثن عشية أو عشية وليلة يكُنّ فيها محلّ الاعتناء والتّبجيل من أهل الزوجة، ويخضّبن بالحنّاء يدي البنت مرّة أخرى على رنّاتِ التعليل الذي تجريه الربايبية أو غيرها».(ص177).



الزفـاف :

وفي ليلة الزفاف يجيء المهنّؤون من كل مكان، أقارب وأصدقاء وجيرانا، ليحتفلوا بالزّفاف السعيد.

وتأتي العروس مصحوبة بالعريس وبآبائهما، وقد تزيّنت ولبست حلّة الزّفاف النّاصعة البياض وشدّت مشموم فلّ كبير بيدها وأترابُها والمهنّئون ينظرون إليها بإعجاب وفرح والبسمة مرتسمة على شفتيها، معبرة عن سعادتها وفرحها بهذه الليلة المباركة، وتعزف الجوقة موسيقاها، ويتعالى صوتُ المطرب بأغنية الزّفاف.

ومن العادات التي كانت متّبعة قديما ما يلاحظه محمد بن عثمان الحشايشي في كتابه «**الهدية في العادات التونسية**»[1] أن الزوج كان يدخل على عروسه ويختلي بها لكنه لا يبيت ولا يكون الزفاف إلا في ثلاث ليال، ليلة الجمعة أو الإثنين أو الخميس كما لا يقع العرس في شهر المحرّم.

أما الصادق الرزقي في كتابه «**الأغاني التونسية**» وهو يصف حفل الزفاف بناحية بنزرت فيلاحظ أن العروس تكون قد تأهّبت وازينّت، يبعث لها العريس عددا من العربات يكون بالفرد مصحوبة بالفنارات وجماعة من حاشية العريس وامرأة من طرفه، وحين وصولها إلى بيت العروس يتلقّاها أهلها بالزغردة، يقول الرزقي : «يدخل أقرباء العروس ومن كان محرما لها فيجدونها قد تهيّأت والتحفت بصنجق تبركا وكذا جميع النسوة قد التحفن وتهيّأن للخروج معها والعوادة إذاك ترحّب وتعلل بهذا المغنى الذي منه :

1ـ انظر كتاب «الهدية في العادات التونسية» من تحقيقنا بالاشتراك، تونس 2002.

«قعدّوها قــعدّوهــا في بيــت بوهـــا»[1]

ويدقق الصادق الرزقي ما يقع من الهدايا في هذه اللحظات وكيف تقبّل العروس يد أبيها بمزيد الحياء والخجل فيضع يده على رأسها ويسير بها إلى العربة فتركب هي وحنّانتها وأمّها بعربة مستقلّة بينما النسوة يولولن وعند وصول العربات التي يمتطيها أهل العريس والعروس، يأخذ الأب يد الفتاة وينزلها من العربة ويضع يده على رأسها ويدخلها إلى بيتها ويخرج بسرعة، فيتعرّض له والد العريس ويتبادلان التهنئة وينصرف الأب في حاله هو وجماعته.

أما في صباح العرس، فتنهض العروس من النوم وتعتني بها الحنانة وتلبسها أفخر الثياب والمصوغ كما تجلسها وسط البيت، وتقدّم الهدايا إليها ثم تخرج إلى وسط الدار، وتجلس على كرسي عال تحيط بها الفتيات الجميلات.

وتتم تصديرة العروس إلى ما بعد الزوال ويقع الاستماع الى فرقة موسيقية تسمى «عوادة» تمتع بانغامها الحاضرات.

أما العريس فيتفسّح مع أصدقائه، وعند رجوعه العشية إلى المنزل يستقبل بالزغاريد، وتأخذ الحنّانة بيده وتجلسه بجوار عروسه إلى أن يحين الليل فينفرد العريس بعروسه.



1 ـ انظر: كتاب «الأغاني التونسية» ص183 الدار التونسية للنشر، تونس 1967.

مراسم الزواج بتونس في كتاب "صفوة الاعتبار" لمحمد بيرم الخامس

محمد بيرم الخامس من الشخصيات التونسية اللامعة، ومن أنشط رجال الإصلاح التونسيين في القرن التاسع عشر إلى جانب خير الدين والجنرال حسين وأحمد بن أبي الضياف والجنرال رُستم ومحمود قابادو، وكان متضلّعا من أصول الدين والأحكام الشرعية، تجوّل كثيرا في العالم، في أوروبا وآسيا وأفريقيا، وكان يشتغل وطنية، وحين احتلّت فرنسا تونس اختار الهجرة إلى مصر وقام فيها بنشاط إعلامي وثقافي كبير إذ أصدر فيها جريدته «**الإعلام**». نذكر من تآليفه رسالة في الرقيق عنوانها «**التحقيق في شأن الرقيق**»، وكتاب «**صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**» وهو في خمسة أجزاء، خُصص آخر الجزء الخامس منه لحياته ونشاطه الفكري والإداري والثقافي. والجزء الثاني مهمّ بالنسبة إلى الحياة السياسية

والاقتصادية والاجتماعية بتونس في القرن التاسع عشر إذ تناول فيه المؤلف الوظائف السياسية والعسكرية والعلمية بتونس، وذكر فيه كثيرا من الأحداث السياسية التي جرت بتونس في عصره والتي كان شاهداً لها وعليها، وكان هو من الفاعلين فيها خاصة خلال ولاية محمد الصادق باي وتولّي خير الدين الوزارة الكبرى وبيّن أسباب إعفائه منها.

ومن فصول الكتاب فصل الحياة العلمية والثقافية بتونس، فيه ما يخص التعليم بجامع الزيتونة والمدارس بتونس العاصمة وسائر المدن التونسية. وخصّص المؤلف فصولاً للصنائع والمساكن والطرقات والملابس والأكل واللّغة. وما يهمُّنا في هذا الكتاب الفصل الخاص بالأعراس والمواكب بتونس في عصره.

فقد خصّص محمد بيرم الخامس فصلا في الجزء الثاني (ص139 ـ 144) من كتابه «**صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**» للأعراس التونسية والمواكب التي كانت تنظّم بتونس في القرن التاسع عشر، فتحدّث عن المهر والملاك، وفصّل القول في ما كان يهدى للخطيبة بعد إعلان الخطبة مما يدل على الرفاه في العائلات التونسية والتحضّر والتمدّن، فالملاك أو الإملاك هو حفل تهدى فيه الهدايا للخطيبة، ومما يهدى فيه «صندوق صغير مجلّد بصفائح الفضّة أو خشب مرصّع بالصّدف وفيه المهر مصرور في مناديل من حرير مخلّط بالفضة ثمّ صندوق آخر أصغر من الأول من فضّة أو ذهب أحيانا مقسّم الوسط به قنّينات مملوءة أعطاراً وأسفلها أنواع من طيّب البخور والعنبر والقُماري، ثم حقّة ذهب أو فضة فيها قطعة كبيرة من سكّة الذّهب(....) لتوضع في كفّ العروس عند وضع الحنّاء»(ص141).

ومما يهديه العريس الى الخطيبة حسبما يذكره محمد بيرم الخامس :

1) حصير أو أزيد مملوء بالحنّاء الورق ملفوف في ملاحف من قطن أو حرير.

2) صحن من زجاج أو فضّة فيه عصيدة الحنّاء في شكل مزدان، موضوع في طبق من زعف مكسو بمنسوج من الحرير أو الفضة مغطّى بمنديل.

3) قطعة من مصوغ مكلّل بالأحجار الثمينة.

4) حزم من الشمع الأبيض، كلّ معصّب بالتّقاريط الحريرية أو الفضّة عددُها من 3 إلى 20.

5) شمعتان كبيرتان أو أكثر، كلّ منهما معصّبة أيضا مثل الأخرى.

6) خُمسة وهي شمعة في صورة كفّ آدمي كبيرة طولها نحو ذراعين أو أكثر وأحيانا أكثر من خمس خُمُس.

7) أطباق من الزّعف وهي التي تسمّى كنستروات مليئة بالسكّر.

ويحدّثنا محمد بيرم الخامس أيضا في فصله عن الأعراس بتونس عمّا يجري من حفلات في بيت العروس إذ تُزيّنُ وتلبس أجمل لباس، ويوضع على رأسها رداء من منسوج الفضّة، وعلى وجهها برقع من الحرير، وتوقد الشموع، وتجلس العروس على مصطبة وحولها مخدّات من الحرير أو الفضّة.

وتقدم للخطيبة الهدايا من الحضور وتحنّى يداها بالحنّاء المهداة من العريس بعد أن توضع قطعة الذّهب في كفّها، ثم تتعشّى النّساء الضيفات في الليل ويُفطرن صباحا.

ويصف محمد بيرم الخامس ما تلبسه العروس صباحا وهي القمجّة يصفها كما يلي : «هي جبّة كبرى من نوع من الفضة المنسوجة ثخينة ثقيلة(...) ويتبعها سراويل مثلها». ويلاحظ الألبسة الأخرى التي تتجهّز بها العروس، وما تعدّه لجهاز البيت من كسوة وغيرها.

أما العريس فيجعل الأسرّة في البيت والسّاعات والمرايا والبسط، ويستنكر محمد بيرم الخامس المصاريف الباهضة التي ينفقها أبو العروس فيقول : «يتهيّأ أبو العروس إلى إنفاق الأموال» ويقول أيضا : «ويصرف أبوها أضعاف أضعاف من المهر»، ويقول منتقدا هذه الظاهرة الاجتماعية في تونس وهي المبالغة في الإنفاق في الأعراس : «وبعد أسبوع من عرسها (الزوجة) تباع تلك الأشياء بمالا يبلغ الرّبع من ثمنها الأصلي».[1]

ويقول : «من كثرة المصاريف عضلت بنات من يخشى على عِرضه وتفقّرت أقوام ولا حول ولا قوّة إلا بالله».

ومعروف أن كثرة المصاريف في الأعراس تعد من البدع المستنكرة اذ يتداين الزوج حتّى يصاب بالإفلاس.

ويذكر محمد بيرم الخامس في آخر مقاله الخاص بالأعراس مجيء العروس إلى بيتها، ويلاحظ أنّه أخيرا يؤتى بها هي وقرابتها في كراريس يرسلها الزّوج ويذهب أحد أقرباء الزّوج للإتيان بها، وتهدى إليها هدية تسمّى «قصّان الدّلال».

أمّا موكب العرس فيذكره محمد بيرم الخامس بالتفصيل وهو يتمثل في إيقاد الشموع ومصاحبة النّساء للعروس وهنّ يولولن في الطريق، ويد قن الأبواب ويصرخن «يا سعد يا سعد». ويكون العرس إمّا ليلة الجمعة أو ليلة الإثنين أو ليلة الخميس،

1ـ ج2، ص141.

وعن كتابة عقد الزواج، أو تحرير الصداق كما يقال يصف محمد بيرم الخامس ما يجري في الحفل خاصة من سقي الحاضرين بماء محلّى بالسّكر فيه أنواع من الطيب ثم رشّهم بمياه الطيب أيضا ثم بعد ذلك يرفع الخواصّ جهاز العروس على الحيوانات ويطوفون به في البلاد ثم تفرش بيت الزوجية.

وقبل ليلة العرس بيوم تصنع وليمة بالحلويات الخفيفة على مائدة مستطيلة كبيرة يدعى إليها مئات من الناس فيأكلون فوجا بعد فوج. ثم يقرؤون الفاتحة وينصرفون. وتكون الوليمة أحيانا في العشاء، وتحتوي على مطبوخ من اللّحم والطّير والسّمك والحلويات.

ويذكر محمد بيرم الخامس أيضا ما يقع في العائلة التونسية في حفلات الزواج من إحضار الجوقات الموسيقية مع مغنيات وتكون في ليلة العرس أو ليلة السّابع منه أو زمن الوليمة.

أما في القرى فيذكر أنّ العروس تأتي لبيت زوجها في محفل على ظهر جمل مزيّن بالثياب الرّفيعة والحلي، وحوله أفواج من قرابة الزوجين بأحسن لباسهم، والطبل يعزف والبارود يصرخ، وتارة الخيل والفرسان تلعب إلى أن تصل العروس إلى بيت زوجها، ويجعل أبو الزوج وليمة للحاضرين.

ويذكر محمد بيرم الخامس ولولة النسوة والغناء والسرور، ويلاحظ أنهنّ يضربن خمورهنّ على جيوبهن «وهن منصتات وتارة يغنين والرجال يسمعون»[1].

1ـ ج2ص143.

المرأة والزواج في كتاب "العادات" لمحمد المكي بن الحسين

محمد المكي بن الحسين، ولد بنفطة سنة 1301هـ وانتقلت أسرته من نفطة إلى تونس وهو في سن الواحدة من عمره. كان محبّاً للعلوم، حريصا على التكوّن في الأدب واللغة، التحق بجامع الزيتونة حيث نال التحصيل، وهو أخو الخضر حسين، قال عنه زين العابدين السنوسي في كتابه «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» : «الأستاذ محمد المكي من شواذ الكادّين في سبيل الأدب والمعرفة، فهو مغرم بالأبحاث الفنّية الدقيقة في اللّغة وعادات العرب في الأعصر الجاهلية، كرّس لها حياته بليلها ونهارها وقيلولتها الطويلة فلا يكاد يفرغ من التنقيب وراء تحقيق إلاّ وقد جمع زمرة صالحة لتحقيق عادات أخرى من عادات العرب»

توفي محمد المكي بن الحسين في 26 جانفي 1963، وتبلغ تآليفه ثمانية كتب تتعلّق بالعادات والأمثال والحكم والنوادر[1].

***

1ـ أنظر عنها كتابنا : أعلام من المغرب والمشرق، تونس 2006.

من كتاب «**عادات عربية**» لمحمد المكي بن الحسين، جمع وتحقيق علي الرضا الحسيني والصادر عن الدار الحسينية للكتاب بدمشق سنة 1995، كانت العروس عند العرب تنقط في خديها نقط صغار بالزعفران. وكانت النساء يتزيّنّ بالحنّاء، فيصبغن بها الأكف والأصابع والأظافر وأخامص الأقدام وأصابع الأرجل.

وكانت الأبكار منهنّ يقصصن الغرّة، ويبرزن شعورهنّ فوق الجبين إلى قرب قمّة الرأس، وإذا تزوّجن أرخينها وسترن شعورهنّ بالمنديل، وقد أشار عنترة إلى إسدال القصة من الشعر فوق الجبين في قوله :

ويطلع ضوء الصبح فوق جبينها

فيغشاه ليل من دجى شعرها الجعد

وكنّ يذرن الإثمد على شفاههنّ ولثاتهن[1] ليكون ذلك أشدّ للمعان أسنانهن ونقائها. وكنّ يتزين باستعمال الوشم، وهو نقش بالإبرة في البدن، يحشى كحلا ونؤرا[2] ليخضرّ.

قال ابن سيده : الوشم ما تجعله المرأة على ذراعها بالإبرة، ثم تحشوه بالنّؤر وهو دخان الشحم.

وأمّا الرجال من العرب فكانوا يستعملون الوشم في بعض المواضع من الجسد، يزعم أنّه يقوّي المفصل الذي وشم عليه، وهو عادة مستقبحة فلذلك أبطلته الشريعة المحمّدية لما فيه من التمثيل بخلق الله.[3]

1ـ اللثة : اللحم الذي تنبت عليه الأسنان.

2ـ والنّؤر : هو دخان الشحم.

3ـ ص 37، 71، 72.

وكانت النساء يتضمّخن بالزعفران، يلطّخن به ثيابهنّ، كما كنّ يلطّخن أنوفهن بالطيب، ويكثرن من استعمال المسك، فيذررن فتاته بين شعورهن وفي ثيابهن، قال امرؤ القيس :

وتضحِي فُتات المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى، لم تنتطق عن تفضّل

وقال أيضا :

إذا قامتا تضمّخ المسك منهما

نسيمَ الصّبا جاءت بريّا القرنفل

وكنّ يستكن بقضبان المساويك على اختلاف أنواعها، كقضبان الأراك والإسحل والبِشام وغيرها، وهي أشجار عطرة الريح، عيدانها صالحة للاستياك، قال ورد بن ورد الجعدي :

هنيئا لعُودٍ من بشامٍ تزفّه   على بَرَدٍ شهْدٍ بهنّ مشوب

بما قد تروّى من رُضابٍ ومسّهِ   بنانٍ كهدّاب الدّمقْسِ خضيبِ[1]

ومن العادات العربية الخاصّة بالأعراس أن العرب كانوا يدفعون في الصّداق إبلا، من ذلك قولهم : ساق إلى المرأة صداقها، وتلك الإبل يقال لها النافجة لأنها تضخم مال الأب.

ومن العادات التي كانت جارية عند الأمة العربية في العهد الجاهلي أنهم كانوا إذا زوّجوا فتاة وأرادوا زفافها، تقدّم إليها وليّها بوصايا تنفعها في حياتها إذا عملت بها، فمن ذلك حكي أن قيس بن مسعود زوّج ابنته وممّا أوصاها به : «اغلبي أحماءك بالخير ولا

1) من فصل «عادات نساء العرب في الأعصر الجاهلية»، من كتاب «عادات عربية»، ص74.

تغلبيهم بالشرّ، وكوني لزوجك أمةً يكن لك عبدا، وتتبّعي من الطيب مواقع أنفه، واعلمي أن أطيب طيب النسـاء الماء».

وذكر في كتب الأدب أن أبا الأسود الدّؤلي وهو من التابعين لمّـا زوّج ابنته وأراد تحويلها قال لها : عليك بالزينة، وأزينُ الزّينة الكحل، وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء[1].

ومن الدعاء للمتزوّج : بالرّفاء والبنين أي بالالتئام والاتفاق وجمع الشمل وحسن الاجتماع. وهو من رفأت الثوب إذا ضممت بعضه إلى بعض.

وتزوّج عَقيل بن أبي طالب فقيل له : بالرفاء والبنين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رفأ أحدكم أخاه فليقل : على الخير والبركة، بارك الله لك، وبارك عليك[2] .

ومن عادات نساء العرب أيضا في الجاهلية أنّهنّ كنّ يشاطرن رجالهنّ كل أنواع المتاعب، ويساعدنهم في كثير من ضروريات الحياة، وكنّ لا يردن الماء إلا إذا صدرت كلّ فرقة عنه، فكن يغسلن أنفسهنّ آمنات ممّـا يزعجهنّ، وكنّ يرسلن ذيول ثيابهنّ خاصة في المواسم والأعياد.

ومن معجم صفات النّسـاء امرأة خضرة إذا كانت مستتره لشدّة حيائها، يقول حميد بن ثَور الهلالي في وصف امرأة خفرة :

وليست من اللائي يكون حديثها   أمام بيوت الحيّ أنّ وإنّما

قال الهيثم بن عُدي : كنّا جلوسا وإذا بنا نستعرض أبياتًا في

1 ـ إسباغ الوضوء : إكماله وإتمامه والمبالغة فيه. انظر ص 106 ـ 107 من نفس المرجع.

2 ـ نفس المرجع ص 107.

جمال المرأة، قال أحدنا : قال حاتم الطائي :

يُضيء بها البيتُ الظّليلُ خصاصُه إذا هي يوما حاولتْ أن تبسّما

وقال آخر : قال الأعشى :

كأنّ مشيتها في بيت جارتها مرُّ السّحابة لا ريثٌ ولا عَجَل

وقال ثالث : قال أبو قيس بن الأسلت :

ويُكرمها جاراتُها فيزرنها وتعتلّ عن إتيانهنّ فتُعذرُ

وليس لها أن تستهين بجارة ولكنّها منهنّ تحيا وتخفَرُ

ومن أوصاف المرأة الحسناء ما يورده محمد المكي بن الحسن في كتابه : «عادات عربية» : **الخريدة** : المرأة الحييّة، الطّويلة السّكوت، الخافضة الصوّت. و**الحَصان** : المرأة العفيفة، يقال بيتُ الحصانة أي بيتُ العفّة، ومن أمثال العرب : العِفّة جيش لا يهزم.

ومن فصل التفاخر بصون الجارة من كتاب «**حكم وأخلاق عربية**» لمحمد المكّي بن الحسين[1]، قال عنترة :

وأغُضّ طرفي إن بدت لي جارتي حتّى يواري جارتي مأواها

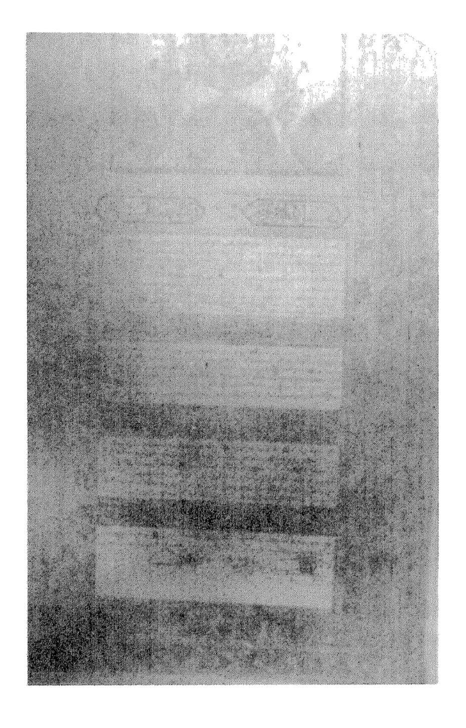
إنّي أمرؤ سمْح الخليقة ماجدٌ لا أُتبع النفس اللّجوج هواها

وأشرف ما يُتفاخر به في البادية من كريم الأخلاق التعفّف نحو الجارة، والمحافظة عليها من كل عيب. وفي أمثالهم السّائرة قولهم :

---

1 ـ ص 316 ـ 317، وهو كتاب من جمع وتحقيق علي الرضا الحسيني، طبع بالدار الحسينية للكتاب، دمشق 1997. يقع الكتاب في 368 صفحة.

فلان عَفّ الجوار، أي عفيف عن جاره، وفسّره بعض شراح الدّيوان فقال : يقول أغُضّ بصري إذا بدت لي جارتي حتى تدخل منزلها فيواريها ولا أتبعها ببصري.



عقد زواج لأحد البايات

زواج المعز بن باديس وزواج أخته

كان المعز بن باديس محبا لأهل العلم، كثير العطاء للشعراء والأدباء حتّى انتجعوه، وكانت القيروان محطة بني الآمال كما جاء في كتب التاريخ.

وكان له دور كبير في الحث على الإقبال على الأدب شعره ونثره. وقد بلغت الحضارة بالقيروان في عهده الأوج إذ ازدهرت الثقافة وانتشر التعليم، وانتعشت الحياة الاقتصادية. ومن مظاهر الازدهار الاقتصادي وما بلغته الحضارة في عهده من تطور وتقدم الأخبار التي نجدها في كتب التاريخ عن زواجه، فحين تزوج قدّم لعروسه مهرا جملته عشرة بغال، كل بغل عليه عشرة آلاف دينار، ووافت الجموع بالهدايا من جميع الآفاق، وتناشد الشعراء المدائح. وبنى قصرا خارج المنصورية لزواجه سماه الخورنق نصب حوله

القباب المفروشة بالبسط الثمينة والأثاث الفاخر، وصنع لجلوسه به إيوانا بديع الجمال لم ير مثله حسنا وزخرفة، وحشر من آلات الملاهي ومن المغنين والمغنيات مالا يوصف عظمة وكثرة. يقول عبد العزيز قليقلة في كتابه : «**البلاط الأدبي للمعز بن باديس**» :كان المعز لا يدخر وسعا في تجميل بلاطه بمن قدر على جذبهم إليه من العلماء، والأدباء كتابا وشعراء (...) إنه لم يسمع بعالم أو أديب إلا استدعاه إلى قصره وأغدق عليه من ألوان الحظوة والتشجيع ما حبّبه في البقاء عنده»(ص43).

وقد جاء ذكر الخورنق في شعر لابن رشيق، في قصيدة مدحية للمعز خاطبه بها، أولها :

ذمّت لعينيك أعين الغزلان   قمر أقرّ لحسنه القمران

ومدح ابن رشيق المعز بعديد القصائد منها الهمزية التي تبتدئ بهذا البيت.

عن مثل فضلك تنطق الشعراء   وبمثل فخرك تفخر الأمراء

ومن المظاهر الحضارية في العهد الصنهاجي أنه حين تزوجت السيدة أم العلو بنت نصير الدولة باديس وأخت شرف الدولة المعز نفسه دخل الناس الإيوان المزين فرأوا من صنوف الجوهر والأمتعة النفيسة وأواني الذهب والفضة ما لم يسمع ولم ير لأحد من الملوك من قبل، قال أبو اسحاق الرقيق القيرواني :«فبهر عيون الخلق حال ما عاينوه وأبهتهم عظيم ما شاهدوه وحمل جميع ذلك إلى الموضع الذي ضربت فيه الأبنية والقباب والأخبية، وحمل المهر في عشرة أحمال على عشرة بغال، على كل حمل جارية حسناء، وجملته مائة ألف دينار عينا». وذكر بعض حذاق التجار أنه قوّم ما هو لها فكان زائدا على ألف دينار وهذا ما لم يرقط لامرأة قبلها بإفريقية.

وزفّت العروس في يوم الخميس ومضى بين يديها عبيد أخيها شرف الدولة وأبيها نصير الدولة وجدّها العزيز بالله ووجوه رجال الدولة فكان يوم سارت الركبان بمحاسن آثاره، وامتلأت البلدان بعجائب آثاره».

ولد المعز بن باديس سنة 398هـ وتولى الملك سنة 408هـ وسنّه لا يتجاوز التسع سنين.

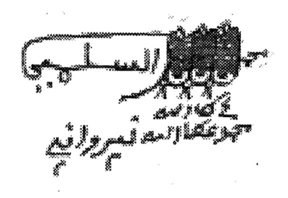
ومن مظاهر الحضارة في عصره أنه لمّا توفيت جدّته سنة 411هـ كفّنها بما قيمته مائة ألف دينار، وعمل لها تابوتا من العود الهندي مرصّعا بالجوهر وصفائح الذهب، ومسمّرا بمسامير الذهب التي بلغ وزنها ألف مثقال، وأدرجها في مائة وعشرين ثوبا من الحرير، وذرّ عليها من المسك والكافور ما لا حدّ له. وقلّد التابوت بإحدى وعشرين سبحة من نفيس الجوهر وحملت إلى المهدية ودفنت بها.

وأمر المعزّ بخمسين ناقة ومائة رأس بقر وألف شاة فنحرت وتركت للنّاس، وفرّق في مأتمها على النّساء الفقيرات عشرة آلاف دينار.

ونلاحظ أن فاطمة حاضنة باديس ومربية المعز والمتوفية سنة 420 هـ كانت راعية للثقافة والعلم فقد حبست قرآنا مذهبا في رمضان سنة 410 هـ على جامع القيروان، وجاء في نص التحبيس : بسم الله الرحمان الرحيم، قالت فاطمة الحاضنة حاضنة أبي مناد باديس حبست هذا المصحف بجامع مدينة القيروان رجاء ثواب الله وابتغاء مرضاته على يدي القاضي عبد الرحمان بن القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم نضّر الله وجهه آمين يا رب العالمين، وذلك في شهر رمضان من سنة عشر وأربعمائة، فرحم الله من قرأ ودعا لهم ولجماعة

المسلمين بالرحمة والمغفرة، وصلى الله على سيدنا النبي محمد وعلى آهله وسلم تسليما».

وجاء في آخر النسخة : «بسم الله الرحمان الرحيم، كتب هذا المصحف وشكله ورسمه وذهّبه وجلّده علي بن أحد الوراق **للحاضنة** الجليلة حفظها الله على يد **درّة الكاتبة** سلمها الله، فرحم الله من قرأ فيه ودعا لهما بالرحمة والمغفرة والنجاة من عذاب النار، آمين، رب العالمين وصلّى الله على النبيّ محمد وعلى آله وسلّم تسليما»



زواج محمد العزيز بوعتور بابنة أخت أحمد بن أبي الضياف

في رسالة المناعي إلى المشير الأول أحمد باي في الشكوى من أحمد بن أبي الضياف وغيره، والتي حققناها ونشرناها سنة 1977، أشرنا إلى علاقة حمدة المناعي بصاحب «**إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**» وذكرنا أنه كان تزوّج أخته، وكان المناعي ينفر من زوجته واسمها ددّو.[1]

وكانت علاقته بأحمد بن أبي الضياف سيئة، وتولّى المؤرخ وكاتب سرّ البايات تزويج ابنة أخته محبوبة المناعي بالوزير محمد العزيز بوعتّور. وأشرنا في الكتاب المذكور إلى ردّ المناعي على طلب خال الفتاة بتولي تزويجها، وقد عثرنا على رسالة أحمد بن أبي الضياف إلى المناعي طالبا منه الموافقة وتوكيله لتزويج ابنته، وهذا نص الرسالة :

---

1 ـ يبدو أن أصل هذا الاسم هو دعد.

«الأكتب الماجد البارع الأديب الزكي أخونا الشيخ سيدي محمد المناعي حرسه الله، أمّا بعد السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته فإنّ الله تعالى الذي خلقنا من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء، اقتضت حكمته ببقاء هذا النوع الإنساني بما حضّ عليه في كتابه وعلى لسان رسوله وجدع بالحلال أنف الغيرة، ولتعلم أن ابنتنا قد بلغت الأشد، وتاقت النفس على تمام صيانتها وحفظها بما هو ضروري للبشر، فأجرينا في مضمار الاختيار أفراس الأفكار فكان الجلي هو الشاب الفقيه العفيف الثقة الخير الماجد الأديب النجيب أبو عبد الله سيدي محمد العزيز بوعتور، وهو ما علمته حسبا ونسبا ومروءة وأدبا، لم يبطئ به حسبه حتى يسرع به نسبه القريشي وكان المقدس المرحوم شيخنا والدكم قدّس الله روحه يرى بيته من البيوت المعدودة، وله معنا أخوة الصناعة، ومن أمثالهم الخال والد، وملاك هذا الأمر بيدك شرعا وطبعا ومروءة، فإذا انفتح صدرك لما وقع عليه اختيارنا فعرّفني بمكتوب منك لنتفق مع أهله على يوم يكون الاجتماع فيه بضريح العارف بالله سيدي محرز بن خلف على قراءة الفاتحة لنتيمن بذلك المقام ولا بد من حضورك معنا وحضوركم هو الذي نغصبكم عليه بعد الموافقة. وأما كتب الصداق فإن شئت أن تباشره بنفسك ولا أحسنه لك، والأنسب أن تكتب لي توكيلا أباشر به كما هي العادة الجارية مع مثلي ومثلك في هذا الأمر، والله يلهم جميعنا إلى الخير والصّلاح واليمن والنّجاح، ونعيد التأكيد في حضورك معنا اذا وافقت. واعلم أنّي لا أطلب أحدا للحضور سوى ما يلزم حضوره من الأقارب والأصهار، والله ولي المؤمنين، والسّلام من كاتبه أحمد بن أبي الضياف».

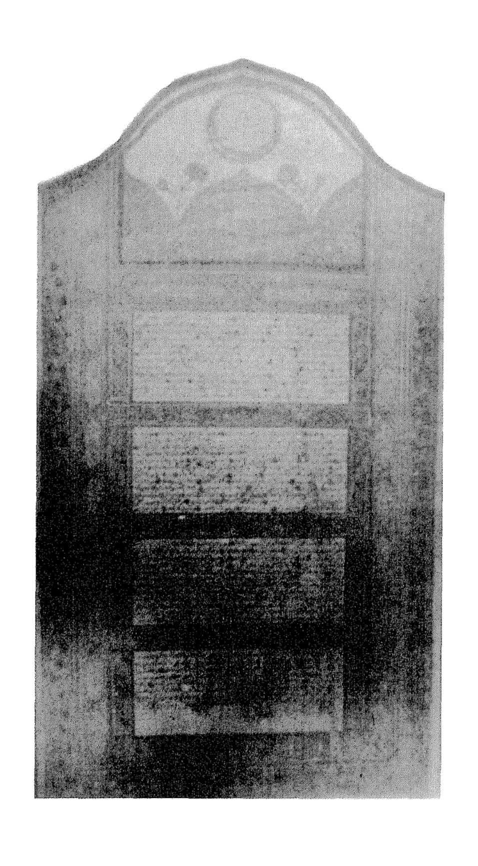
وقد أجابه محمد المناعي الشهير بحمدة بجواب نقتصر منه على الجمل التالية :

«وصلني كتابكم المشحون لطفا وبراً فأفادني عزاً وفخرا وما أشرتم به عليّ في شأن ابنتنا صانها الله تعالى من النظر في أمرها بما هو لازم لكمال صيانتها وسرّها والحال أنها ربيت في حجر كرمك، وغذيت بثدي فضلك مع مالها بكم من اللحمة التي هي أوكد حرمة، فالخال والد والطبع بذلك شاهد، وعليه اتفقت العامة والخاصة من لدن الخليقة، فهي ابنتكم حقيقة، والحمد لله الذي ادخركم لها كنزا، ووهب لها من جنابكم شرفا وعزاً. وحيث قرنتم رأيي برأيكم وضربتم لي بخط من ولايتكم عليها وولايكم، وإن كنت لا أزن نفسي بالصنجة التي بها وزنتني، ولا أزينها بالفضل الذي به زيّنتني فذلك منكم محض فضل عليّ ونعمة، وجوابي عنه لكم طاعة وخدمة، فلتعلم سيدي أني لاختياركم تابع، ولأمركم مطيع وسامع، فأنتم أعلى رأيا وأجود انتقاء. إصدارا وإيرادا، ويصل لجنابكم التوكيل وأنتم لقبوله قاض بحق، ومالك رق، ومتى تأمرني بالحضور يوم العقد تجدني لأمركم ممتثلا، ولقبلة مرادكم مستقبلا، والله يصل بالعز بقاءكم، ويجعل مَن يبغضكم فداءكم، والسلام من كاتبه محمد المناعي»

ونلاحظ أن محبوبة المناعي ابنة أخت أحمد بن أبي الضياف قد توفيت في عصمة محمد العزيز بوعتور، ولم تعقب، وتزوج بعدها زوجه الثانية وهي بنت الشيخ بكار الشريف.

وكان لزواجه الأول بابنة أخت أحمد بن أبي الضياف رنة فرح وسرور كما سجل في التعليق على هذا الزواج.

أما أخت ابن أبي الضياف ددو فقد تزوّجها بعد المناعي محمد بن عثمان جعيط.



عقد زواج لأحد البايات

ثلاث أميرات في "إتحاف أهل الزمان"

توجد في «**إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان**» فقرات أبدى فيها أحمد بن أبي الضياف إعجابه ببعض نساء زمانه، فهو يثني عليهن، ويمدح أخلاقهن، ويعدد خصالهن، فهو يذكر زوجة حسين باشا باي الثاني الذي تولى الحكم في 28 مارس 1824 وتوفي في 20 ماي 1835. وقد توفيت في 23 مارس 1827، واسمها فاطمة، فينوه بها قائلا :

«كانت من الكرم وعلوّ الهمة وجلب القلوب (...) ترى نفسها كعامة نساء المدينة، توقّر الكبير، وترحم الصغير، وتجهّز الأيتام، وتعين على النوائب، وتعرف للناس أقدارهم، إذا وقعت وليمة عند أحد من أعيان الحاضرة ولم يبعث إليها في استعارة مصوغ ونحوه مما يلزم عادة في الولائم، تبعث إليه بعد تمام الوليمة إحدى خدمتها

مهنّئة، وتقول له : عادة بلدنا أن صاحب الوليمة يستعين بأقاربه في لوازمها ويقال في المثل : صاحب التاج يحتاج، وساءني حيث لم أحرك في وليمتك بشيء. إلى غير ذلك من الكمال المنظوم في مثل هذا الأسلوب المالك لأحرار القلوب، ترى الفضل لمن زارها وأمّ دارها».

ويعلمنا ابن أبي الضياف أن زوج الأميرة فاطمة حسين باي قد لبس عليها هو ورجال دولته ثياب الحزن عاما، توفيت بمرض أصابها عقب الولادة، وختم ابن أبي الضياف الفقرة المخصصة لها بالدعاء لها بأن يقابلها الله بجزيل إحسانه ورحمته. ورثاها بقصيدة ضمّنها مشاعره نحوها. يقول فيها :

هذي التي أضحت عيون خصالها تبدو كبدر زيّنته نجومه

هذي التي ربّى اليتيم برورها وبموتها كلّ الأنام فطيمه

هذي التي من سيل غيث غمامها جاد اللئيم وزال عنه لئيمه

يفنى الزّمان وذكرها مسترسل والدّهر حقًا لا يموت كريمه[1]

ويذكر لنا ابن أبي الضياف امرأة أخرى هي آمنة زوج محمود باي، وبنت علي باي وأم حسين باي ومصطفى باي، توفيت في 18 ديسمبر 1822، يقول عنها المؤرخ :

«حزن لفقدها أولادها حزنا لم يعهد مثله، ووضعت على النّعش أمام باردو وأولادها وراءها راجلين إلى تربة أبيها، وأعتق عليها ما ينيف على المائتي رقبة، وسار نعشها مظللا بصحف حريتهم. وأفاض زوجها الصدقات، وسرّح المساجين، وحزنت لفقدها المملكة سنة كاملة لكمالها الذي صيّرها في الحاضرة بمنزلة الأم الشقيقة الرفيقة».[2]

1ـ انظر ديوان أحمد بن أبي الضياف، بتحقيقنا، تونس 200 ص : 164ـ 165.

2ـ الإتحاف : ج3، ص181.

وقد رثاها الشيخ ابراهيم الرياحي بقصيدة منها هذا البيت:

أم الملوك وأختهم وكفى المحـــ ـمود أمير المؤمنين خليلا

ويذكر ابن أبي الضياف إمرأة أخرى وهي فطومة باي أخت أحمد باي، وقد زوّجها لمحمد المرابط القيرواني، كتب دعوة لأهل المجلس الشرعي ليحضروا عقد الزواج، وضمّن تاريخه جزءا من خطبة، جاء فيها : «رضيعة لبان المجد، البالغة من الصون والعفاف الى أبعد حد، الحائزة بنسبها العريق في الملك الدرجة المعلومة، الطاهرة الجليلة السيدة فطومة». ويعلمنا صاحب «الاتحاف» أن الزوج بنى بزوجته في داره بالمحمدية.[1]

وتدل هذه النصوص الثلاثة على مكانة المرأة في تونس أمّا وزوجة وبنتا، فهؤلا النساء الثلاث عنوان الكرم وعلو الهمة ومحبّة الناس وسعة الصدر ومثال الصون والعفاف الى أبعد حد.

1 ـ الإتحاف : بتحقيقنا ج4، ص 190.

صافيناز زوج السلطان عبد الحميد ويلدز زوج السلطان عبد العزيز

هما جاريتان أهداهما محمود بن عياد التونسي إلى السلطان عبد العزيز، وقد شغفتاه حبا. وهما شقيقتان، لهما شقيقة أخرى تسمى ناجية استأثر بها محمود بن عياد لنفسه، وهكذا كان محمود صهرا للسلطانين عبد العزيز وعبد الحميد، وعندما وقعت عينا السلطان على صافيناز ويلدز سحر بجمالهما الفتان، وجازى محمود بن عياد بعلبة سجائر ذهبية مرصعة بالألماس، أما الخصيان اللذان صحباهما للسلطان فقد فاز كلّ منهما بقدر كبير من المال. وأسكن السلطان صافيناز ويلدز جناحا فاخرا من قصره، وهام بهما كل الهيام، وأرفق كلّ واحدة منهما بعدد كبير من الخدم والحشم، وأوصى عليهما والدته، وطلب يد صفيناز لكنها رفضته.

وتألم لهذا الرفض، واختار بدلا عنها الزواج بأختها «يلدز» وتعني هذه الكلمة التركية الكوكب؟ ورقاها الى أعلى مرتبة في القصر.

رفضت صافيناز يد السلطان عبد العزيز لأنها كانت ارتبطت بعلاقة حب بالأمير عبد الحميد الذي سيعتلي دست الخلافة بعده، وكان عبد الحميد ميالا الى عشق النساء، وتقول كتب التاريخ إنه كان ينظر من خلال الثقب إلى الجواري يتطلع إلى وجوههن، ويسترق أخبارهن، ومن المعلوم أنه تزوج اثنتي عشرة زوجة لكل منهن أجنحة مليئة بالخدم الخصيان والوصيفات والموظفات.

لقد رأى الأمير عبد الحميد صافيناز ذات مرة وهو يسترق النظر إلى الجواري الفاتنات اللاتي كان يعج بهن القصر عجّا فعشقها، وهام بها ولم يعد يفكر في سواها، فكيف سيصل إليها والأبواب مغلقة، والجواري محجّبة؟ بل هنّ كالمسجونات في أجنحة القصر. والتجأ إلى والدة السلطان عبد العزيز، وكاشفها بالموضوع، وأعلمها بأنه لا يطيق صبرا على رؤية صافيناز والاتصال بها، والتمتع بقربها، فقد علقها قلبه وما من حيلة لنسيان هذا الجمال الباهر لهاته الحسناء التي أهداها محمود بن عياد إلى القصر. فجمال صافيناز ليس له مثيل، وكم رأى الأمير عبد الحميد من جوار وحسان مدهشات بحسنهن الفتان لكنه لم ير طيلة حياته مثل هذا الجمال، ولم يفتنه مثل هذا الرواء وهذا الحسن!

كانت والدة السلطان عبد العزيز تؤثر الشاب عبد الحميد بحبّها وعطفها فأشفقت عليه مما يقاسيه من عناء وشوق لافح بعد أن باح لها بحبّه لصافيناز، وأسرّ لها أنه مهدّد بالموت إن لم يرها ويقترن بها، فعلى والدة السلطان عبد العزيز اذن أن تدبّر الأمر وأن تجمع بين القلبين فاحتالت للأمر وأخبرت السلطان عبد العزيز أن صافيناز جدّ مريضة، ويقتضي الرأي أن تذهب للاستجمام في أحد المصايف فأذن

السلطان وكانت كلّ مرة تنقل إليه أخبارها الزائفة الى أن أبلغته ذات مرة أنها توفيت فصدّقها.

وهكذا فاز الحبيب بحبيبته، وأخفى عبد الحميد أمر زواجهما إلى أن ولي الخلافة فصرّح به وأشاع حبه لها الفريد، وكان يقول إنه لم يحب امرأة غير صافيناز، وكانت شجّعته على احتمال المكاره والمصاعب في أول أمره.

ونلاحظ أن السلطان عبد العزيز قد تولّى الحكم سنة 1861 وتولّى بعده السلطان مراد الخامس سنة 1876 وخلفه السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1876.



محمد الحبيب باي يتوسط أمراء، ويظهر في آخر يسار الصورة واقفا إبنه محمد الأمين باي آخر البايات الحسينيين ابن فاطمة اسماعيلية إحدى زوجات محمد الحبيب باي الثلاث.

وثيقة عن زواج الحبيب باي بخادمة

كنا عثرنا على هذه وثيقة في كنش أبي عبد اللّه حسين بن مصطفى الترجمان المعروف بكنش باش مملوك، في الجزء السابع، ص 98 - 100، وهو كنش ضخم يقع في إثنى عشر جزءا كان يملكه محمد الطاهر باي وأهداه لأخيه محمد الصادق باي في ذي الحجة 1334هـ/ أكتوبر 1916م كما هو محرر في أول صفحة من كل جزء، وعنوان هذا الكنش : «**حدائق الأنوار الزاهرة والدرر الفاخرة**» ويحتوي على إفادات عديدة تهم خاصة الأدب التونسي كما يتضمن وثائق كثيرة ومعلومات تاريخية مهمة، على أن أهمية هذه الوثيقة التي نقدمها إلى الباحثين هو إلقاؤها أضواء على شخصية الحبييب باي الذي تولى الحكم من 8 جويلية 1922 إلى فيفري 1929. غير أن هذه الفترة شهدت أحداثا خطيرة تتعلق بتاريخ الحركة الوطنية، وبشروع فرنسا في تطبيق بعض الإصلاحات الإدارية والاقتصادية التي كانت ترمي بها الى ذرّ الرماد في العيون. فقد تولىّ الباي محمد الحبيب الحكم إثر وفاة محمد الناصر باشا باي الذي عرف ببعض مواقفه الوطنية، وموالاته للحركة الدستورية غير أن محمد الحبيب اشتهر بتأييده للحماية الفرنسية، حيث أسرع المقيم العام الفرنسي لوسيان سان

Lucien Saint بتنصيبه على كرسي العرش الحسيني بسراية المرسى في نفس اليوم الذي توفّي فيه سلفه. وقد ألقى الباي خطابا أكّد فيه إعجابه بالدولة الحامية، وامتنانه لها، وأعرب عن تعلقه الدائم بفرنسا وإرادته الراسخة في استمراره على توثيق الروابط بينهما توثيقا يزداد كل يوم ودون انقطاع [1]، وأعلن عن عزمه على المشاركة معها في العمل مشاركة مخلصة صادقة، وعلى تحقيق السلطة «التي لم تزل فرنسا والبيت الحسيني قابضين عليها بوفاق تام من الطرفين»[2].

وأما كاتب هذه الوثيقة فهو الأمير محمد الصادق باي بن مصطفى باي، صهر محمد الحبيب باي، وقد سمي وليا للعهد لكنه لم يتول الحكم إذ توفي في غرة أكتوبر 1955، وقد عبّر صاحب هذه الوثيقة عن سخطه على محمد الحبيب باي إذ تزوج على أخته صلوحة بخادمته الشابة شاذلية بنت الحاج حسن التركي، فنجد الكاتب يعبر عن استيائه من هذا الزواج، ويروي بالتفصيل ظروفه وملابساته، ويحدثنا عن شخصية الخادمة وعن قصتها مع الحبيب باي وابنه عز الدين، ويصور لنا الحالة العائلية للأسرة المالكة زمن الحبيب باي، ويرسم العلاقات بين أعضائها، وهي علاقات اتسمت بالنفاق والكذب والتكالب على السلطة، كما قدم الحبيب باي في صورة مشوهة منتقدا سلوكه الشائن، وتعاطيه للمخدرات ومنددا به، ملمحا من خلال ذلك إلى الوضع السياسي بالبلاد، وتعامل الباي وبعض الأمراء والوزير الأكبر مصطفى دنقزلي مع المقيم العام الفرنسي، كما أشار إلى دسائس هذا الأخير، ذاكرا حسن ڤلاتي وحزبه.

---

1) انظر نص خطاب الباي ثم خطاب المقيم العام : الشاذلي بلحسن : التقويم التونسي عام 1346هـ الموافق لـ 1927 ـ 1928م، ص 45 ـ 47، المطبعة الرسمية بنهج الدريبة، تونس. وقد خصص المؤلف قسما كبيرا من كتابه لرحلة الحبيب باي لفرنسا سنة 1926، ص 33 ـ 136.

2) المصدر نفسه، عن هذه الفترة وعن بعض شخصياتها السياسية انظر أيضا : أحمد توفيق المدني : حياة كفاح (مذكرات)، الجزء الأول في تونس، 1905 ـ 1925، الجزائر 1976.

وتبدو نزعة هذا الأمير الوطنية وغيرته على القضية التونسية وتأييده لرجال الحزب الحر الدستوري «المخلصين لبلادهم»، داعيا لهم بالتوفيق والنجاح، ما يدلنا على وجود شقين في الأسرة الممالكة، شق شديد الولاء لفرنسا، يخدم مصالحها الاستعمارية، وشق وطني غيور على الوطن، واع للحالة السياسية بالبلاد، من بين أعضائه البارزين محمد المنصف باي الذي خلع عن العرش ثم نفي وتوفي في المنفى في غرة سبتمبر 1948.

والكاتب يتهجم على كثير من الأمراء الحسينيين، وينقم عليهم سلوكهم المزري، وصور الفساد الذي كان يعم وسطهم، ويرسم «رغائب الباي الشهوانية ومخيلاته الشيطانية»، يقدمه في صورة «ملك ضال، غارق في بحر هواه»، ويلاحظ أنه ملك مطلق، مستبد برأيه، لا يراجع في أقواله وأفعاله، ومن مظاهر فساده زواجه بخادمة كانت عشيقة لابنه، ومن وسط غير مناسب.

ويهجو كذلك ولي العهد «السابح في لجة مطامعه» والوزير الأكبر الذي «يتملق بين يدي سيده ومولاه» وأمراء مذبذبين «تواعدهم فرنسا بالمواعيد الباطلة». وينتقد أخيرا الحالة السياسية بالبلاد إذ «لم تجد الدولة الحسينية من ينتشلها من وهدة السقوط في دسائس لوسيان سان».

وكانت ولادة محمد الحبيب باي[1] سنة 1858، وسمي وليا للعهد في 12 ماي 1906، ويعدّ الباي السادس عشر من الأسرة الحسينية، وهو ابن مأمون باي بن حسين بن محمود بن محمد بن حسين باي، توفّي والده وتركه صغيرا فكفله عمه الصادق باشا باي واعتنى

1) انظر عن محمد الحبيب باي : محمد الصالح مزالي، الوراثة على العرش الحسيني ومدى احترامه نظامها، ص 42ـ46، تونس، 1969.

بتربيته وتعليمه، «وعامله كأنه ابنه مستخلفا ما حرم منه بحكم الطبيعة لأنه كان عقيما، وزوّجه فيما بعد من أخت مصطفى بن إسماعيل أقرب المقربين إليه»[1].

فيكون محمد الحبيب باي قد تزوّج حسب علمنا ثلاث مرات، ثلاث نساء، هنّ : فاطمة (اسماعيلة) قريبة مصطفى بن اسماعيل أم محمد الأمين باي، وصالحة أو صلوحة بنت مصطفى باي بن علي باي و شاذلية بنت الحاج حسن التركي.

نص الوثيقة

الحمد لله هاته حكاية تاريخية تتعلق بزواج ملك تونس الباشا محمد الحبيب باي بإحدى خدمه المسماة شاذلية، بقلم فقير ربه محمد الصادق باي بن المنعم المرحوم سيدي مصطفى باي [2] وذلك في ربيع الأول سنة 1342 [3] وتركه لزوجه الماجدة الاصيلة السيدة صلوحة باي ابنة المنعم المرحوم سيدي مصطفى باي التي هي صاحبة نسب وشرف، ومن بيت مجد، سلف عن خلف مثله [4]، وذلك بعد مقارنته لها نحو 42عام (كذا).

---

1) المصدر نفسه : ص 42 ـ 43، يروي المؤلف احتمال موت أبي الحبيب باي مسموما، قتله الصادق باي لشكوك خامرته بشأن إخلاصه له ثم ثبتت براءته لديه.

2) هو محمد الصادق باي بن مصطفى باي، ولد في 17 ماي 1888، سمي ولي عهد في 5 جويلية 1953 توفي في غرة أكتوبر 1955 قبل أن يتولى الحكم. وأبوه كذلك لم يتول الحكم ولد في سنة 1845 وتوفي في 31 أوت 1895.

3) نوفمبر 1923

4) هي أخته، وهي حفيدة الباي الثالث عشر علي باي بن حسين بن محمود، تولّى الحكم من 28 أكتوبر 1882 الى 11 ماي 1902. ونسبها يصعد الى الباي الثالث محمد بن حسين وإلي حسين باي مؤسس الأسرة الحسينية، تزوجها الحبيب باي سنة 1300 كما يبدو أسفله، وتوفيت ليلة الأربعاء صباحا في الساعة الثامنة يوم 3 ربيع الثاني 1365 / 6 مارس 1956 ولها من العمر 84 سنة إذ أنها ولدت سنة 1280هـ، انظر ظهر ص 103 نفس الجزء من كنش باش مملوك.

والذي يزيدك أيضا أيها المتأمل في هاته النبذة التاريخية تعجبا واستغرابا هو موافقة ولي عهده اسماعيل باي [1] الذي هو عم السيدة صلوحة بية، وموافقة عمها الثاني أيضا أحمد باي [2] كموافقة وزيره الاكبر مصطفى دنقزلي [3] وسائر وزرائه. والحال ان لا ذنب لها إلا كونها أصيلة، وقاست معه الشدائد التي يطول شرحها قبل جلوسه على منصة الملك، وأعجب من ذلك هو استحسان عماها(كذا) [4] لهاته الفعلة الشنيعة التي لم يسبق في تاريخ العائلة الحسينية مثلها.

فان قيل ان كثيرا من أمراء العائلة الحسينية تزوجوا بمثل هذا الزواج فالجواب انهم لم يتزوجوا من الاميرات لانه كان ممنوعا في القديم، فلا ضر ان تزوج خادمة عن خادمة فهما متساويان في الحسب والنسب، وهذا الأمير هو أول من تزوج بأميرة مثله وبسببه ارتفع المنع سنة 1300 [5] بعد امتناع والدها رحمه الله من زواجها به قائلا : [6] «يا ليتها كانت دم بخرقة ولا كان هذا الزواج»، وذلك دليل واضح على فراسة والدها وخبرته بأحوال هذا الرجل، وتم بينهما الزواج وهو مكره له بوده ان لا يتم ذلك، لكنه تم بإذن من والده المنعم المبرور سيدي علي باشا باي الذي هو جدها وأمير ذلك العصر. [7]

1) إسماعيل باي توفي قبل أن يتولى الحكم في 10 جانفي 1928، ولد في 15 جانفي 1851 وصار ولي عهد في 10 جويلية 1922 وهو ابن علي باي الباي الثالث عشر.

2) أحمد باي الثاني تولى الحكم في 11 فيفري 1929 إلى 19 جوان 1942، وولد في 13 أفريل 1862 هو الباي السابع عشر من العائلة الحسينية وهو الذي خلف محمد الحبيب باي.

3) توفّي في أكتوبر 1926 وخلفه على رأس الوزارة خليل بوحاجب وزير القلم والاستشارة وشيخ المدينة في وزارة الدنقزلي. وبقي خليل بوحاجب وزيرا أكبر مع الحبيب باي إلى آخر عهده. وقد عقد الباي قرانه في دار وزيره الأكبر.

4) كذا والصواب عميها. ويعني بهما إسماعيل باي وأحمد باي المذكورين آنفا.

5) 1882 ـ 1883.

6) في الأصل قابلا.

7) علي باي الباي الثالث عشر من الأسرة الحسينية، تولى الحكم من 28 أكتوبر إلى 11 ماي 1902، وفي عهده دعمت فرنسا تركيزها في البلاد.

التعريف بحسب ونسب الزوجة الجديدة :

فهي شاذلية بنت الحاج حسن التركي الذي كان مربي (كذا) لابنة السيدة مامية بية ابنة المنعم سيدي علي باشا باي عمة السيدة صلوحة بية المذكورة وهي التي زوجته باحدى خدمها المسماة محبوبة الساحلية وهي والدة شاذلية المذكورة، ثم انتقل لخدمة المنعم سيدي محمد الهادي باي [1] عم السيدة صلوحة بية المذكورة عندما قلد ولاية العهد بصفة معين شرفي برتبة بنباشى

ولما توفي سيدي محمد الهادي باي انتقل بالخدمة المذكورة لسيدي محمد الحبيب باي عند ولايته العهد فتركه في زوايا الاهمال، وتعسرت أحواله، وانشبت فيه الفاقة اظفارها الى أن صار في حالة يرثى لها، حتى رث الثياب (كذا) يتسول على المارين بالطرقات ما بين المرسى والكرم ودوار الشط عساه يقوم بنفقة عائلته البائسة.

وكانت ابنته شاذلية سالفة الذكر اذ ذاك تخدم بالاجرة بديار اليهود وأعيان سكان الكرم الذين منهم عبد الرحمان بن عز الدين، والكيلاني شلبي وغيرهما، وانجرت لها المعرفة مع المسمى محمد الطيب الذي هو عاشق لوالدتها محبوبة المذكورة، فتعلقا ببعضهما وازال بكارتها وحملت منه، فلما اطلعت والدتها المذكورة على حال ابنتها مع معشوقها واستبدالها بابنتها خرجت من دارها مكشوفة الوجه وجعلت تخاصم في (كذا) محمد الطيب المذكور على قارعة الطريق عينا ومسمعا من جميع الناس حتى تذمروا (كذا) منها أهالي الكرم ومن فعلها وفعله وجمعه بين الام وابنتها وبعد ذلك اطردت

1) هو الباي الرابع عشر، تولّى الحكم من 11 ماي 1902 الى 11 ماي 1906 أي بقي بالضبط ي الحكم 4 سنوات، وتولى بعده محمد الناصر باي من 11 ماي 1906 الى 8 جويلية 1922.

ابنتها شاذلية المذكورة من محلها فلاذ بها أبوها (الى) عدة أماكن فكل الناس يمتنعون من قبولها الى أن بلغ خبرها الى السيدة صلوحة بية فأخذتها عليها الشفقة وآوتها الى محلها واستخدمتها عندها كبقية الخدمة، فلما رآها ابن مخدومها عز الدين باي [1] تعلق قلبه بها واجابته لفعل الخناء، ووالده محمد الحبيب باي يعلم منهما ذلك علم اليقين، ولما جلس على عرش تونس قربها اليه وجعلها من أخلص أحبابه وخدامه، فصارت تدس لسيدتها الدسائس وتفتري عليها الكذب الى أن أفسدت قلبه عليها. والذي أعانها على فعلها هو ابن مخدومها محمد الامين باي [2] الذي (هو) ربيب السيدة صلوحة بية المذكورة وأخوه الأكبر عز الدين باي.

ولو دريا (كذا) هذان المغروران ان فعلته هاته تعود تاريخا أسودا (كذا) في وجه أبيهما وفضيحة مسطرة على جبين الدهر ما تطاولت الاعوام وتعاقبت الايام، وتكسيه (كذا) مذلة واحتقارا في أعين الاجانب وغيرهم لما ساعدوه (كذا) على رغائبه الشهوانية ومخبلاته الشيطانية، فكيف يرضى العاقل ان يسعى في ثلم عرض أبيه وهدم شرفه بهذا الفعل الشنيع والنسب الوضيع حيث ان صهرهم (كذا) اخا شاذلية المذكورة يتعاطى بيع الفحم بالكرم وصانع خضار بالمرسى وزوج اختها... [3] وخالها يقال له محمد الساحلي صناعته يصطاد الحوت بقرطاج، وخال والدتها المسمى

---

1) عز الدين باي ولد في 19 جويلية 1875 وتوفّي في سنة 1931. لم يتول الحكم، وهو ابن الحبيب باي.

2) محمد الأمين باي : آخر البايات الحسينيين، ولد في 4 سبتمبر 1881 وولي العهد في 25 جوان 1942 وتولى الحكم في 15 ماي 1943و وفي 25 جويلية 1957 خلع عن الحكم إذ قرر المجلس التأسيسي إلغاء الملوكية وإحلال الجمهورية محلها، توفي محمد الأمين باي في غرة أكتوبر 1962.

3) فراغ بالاصل.

الحاج عبد السلام كان مضحك جد السيدة صلوحة بية، سيدي علي باشا باي ولا يعلمان ان جملة ذلك يعود على أبيهما بالخيبة والفضيحة، فلو كان هذبهما وعلمهما لكانا منعاه من هذا الزواج السافل، وكفاك نسب هاته الزوجة وسقوط أهلها ودناءتهم.

ولما أراد الله تعالى عليه بهاته الفضيحة عند نكاحها سرا بدار وزيره الاكبر خشية من عميها [1] ظنا منه انهما أهل غيرة وشهامة ولم يدر انهما مثله، فلما بلغ عماها المشار اليهما بهذا [2] النكاح المنبرم خفية ذهبا إليه ولا ماه على عدم اعلامه لهما ليحضرا في عقده، ولم يكفهما رضاهما بذلك بل الرما افراد العائلة الحسينية بالذهاب الى دار الامير ليقدمون (كذا) له مراسم التهاني بهذا القران الفاسد. ولما اشتهر أمر زواجه بهاته السافلة، أفرد لقرينته الاولى السيدة صلوحة بية محلا خاصا بها وتركها به محبوسة، وعاملها بقساوة نادرة وتوحش عظيم بدون مراعاة منه لكونها قرينته الاعوام الطويلة وساعدته في أيام مسبغته، وفوق الكل هي أميرة جليلة وابنة أمير جليل مثله وتركها تحت غض الطرف وتسبب في تعاسة اميرة رفيعة، وعوضها بخادمة وضيعة، تداولتها الايدي حتى اليهود، دنية الحس، ردية النسب، واستبدل الخبيث بالطيب، وأقام الحقيرة مقام الاميرة، وتصامم عن فعلته بموافقة عميها وغيرهما. وانقطعا عن زيارتها وصارت كعدوة لهما، وكل منهم (كذا) استحسن هاته الفعلة في مثل هذا العصر الذي هو عصر الحرية والمدنية، فيا للّه ما أتعس هاته المناظر المحزنة وأوحشها، ملك ضال غارق في بحر هواه، وولي عهد

---

1) أي عمي صلوحة.

2) كذا هذه الجملة والصواب : ولما بلغ عميها.. هذا النكاح.

سابحا (كذا) في لجة مطامعه بدون أن يتبصر في مبداه، ووزير يتملق بين يدي سيده ومولاه، فلا حول ولا قوة إلا باللّه، فلن تجد منهم وحيدا، في أمره رشيدا، لينتقد ويصده عما أراده وتوخاه، ولكن هيهات! الظالم لا تحمد عقباه ولا يبلغ مناه، وأصبح هذا الملك بعد أن تم له مرغوبه ونجح في مطلوبه، يهزأ بعميها قائلا : اني اشتريت ذمتهما بالدراهم، دفعت لولي العهد أربعة آلاف فرنك ولأخيه احمد باي ثلاثة آلاف فرنك، وهكذا تباع همة كل فاقد الشعور، عدو للانسانية!.

هذا ولا تسأل عن مدح الامير واطنابه لهاته الزوجة صاحبة الألقاب المذكورة، والأوصاف المشهورة، لجلسائه قائلا : «انها بارة بي وهي شريفة الحسب لان والدها تركي، قائمة بشؤون منزلي أحسن قيام» وهم يحسنون له قبائحه. وهكذا يكون حال كل ملك مطلق مستبد برأيه لا يراجع في أقواله وأفعاله [1]، وأيضا عدم وجود رجال يراجعونه ويذبون عن شرف هاته العائلة الذي تدنس بسبب امرأة لا قدر لها ولا قيمة، ورجل لا عقل له لاحتقانه بالمرفينة[2].

وغاية ما يوجد ان هؤلاء الرجال المذكورون (كذا) المذبذبون (كذا) لا يخلو كل منهم من المطامع الشخصية ورتب وهمية تواعدهم فرنسا بالمواعيد الباطلة ليتسنى لها الحصول على سعادتها وسعادة بلادها ولم يتفكروا في عاقبة هذا الامر الذي يعود عليهم وبالا، يخربون بيوتهم بأيديهم ولم يدروا ان هذا السبر [3] الذي هم سائرون

---

1) يظهر هنا تأثر الكاتب بابن أبي الضياف معنى وتعبيرا.
2) هذا الخبر هام لإفادته لنا عن انتشار المرفينة في البلاط وفساد الباي المذكور.
3) أي العرف والعادة.

عليه الآن مبايعين(كذا) دولة فرنسا على استعمار هاته الدولة التي لم تجد نفرا لينتشلها من وهدة السقوط من (كذا) دسائس «لوسيان سان» [1] المقيم العام بتونس الذي أرسل من بلاده لهاته الغاية ودسه الدسائس للميتر قلاتي [2] وحزبه ونشروه بجريدتهم (النهضة) لا انهضها الله، ولولا رجال الحزب الحر الدستوري المخلصين لبلادهم وتفطنهم لهاته الدسائس ومعارضتهم المسطرة على صفحات جرائدهم الغراء لصارت هاته المملكة الى الاستعمار. فنسأله تعالى ان يقرن اعمالهم بالنجاح، ويسلك بهم سبل السداد والفلاح والصلاح، انه قدير، وبالاجابة جدير.

ولما تمكنت هاته الزوجة الساقطة واحتوت على السلطة والنفوذ، اشهرت العداوة على أبناء الأمير [3]، وسعت في ابعادهما عن والدهما، وسلبتهما سعادتهما، وكان دأبها السعي فيما يعود عليها وعلى أقاربها المعوزين الفقراء، وذلك شأن كل لئيم. فلما تحقق ابناء (كذا) الامير دسائسها واخلافها لما وعدتهما به وصارا يندمان على اعانتهما لها، ومدهما يد المساعدة نحوها، حتى تزوجت بوالدهما وسيجزي الذين أساؤوا بما عملوا [4] ثم انها تمادت وسعت في احتقار أفراد العائلة الحسينية رجالا ونساء ظنا منها وانهم يخضون (كذا)

---

1) لوسيان سان :(Lucien Saint) دامت مدته بتونس من 6 جانفي 1921 الى سنة 1929. كان له دور كبيري قانون التجنّس بالجنسية الفرنسية، وفي إقامة النزلاء الأجانب على أراضي الأحباس، وفي مدّته أبدل مجلس الشورى بالمجلس الكبير، وابدلت إدارة الكتابة العامة للحكومة التونسية بإدارة الداخلية، قد وجد في الباي محمد الحبيب المعونة والمساعدة في تحقيق مشاريعه.

2) الأستاذ حسن قلاتي المحامي، توفّي في 7 نوفمبر 1966. قام بدور في الحزب الدستوري القديم.

3) يعني ابني محمد الحبيب باي : عز الدين ومحمد الأمين.

4) اقتباس من القرآن الكريم، من سورة النجم، الآية 31 (ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى).

إليها، ما راعها الا وهم ابتعدوا عن قصر الأمير ونبذوه ولا تراهم يطرقونه إلا في المواكب الرسمية باستدعاء منه بخلاف ولي العهد وأخيه لقربهما لولاية الملك فهما من أعز الاحباب لدى الأمير وقرينته الجديدة قاطعين زيارة ابن أخيهما بعد أن كانا يتملقان لها في أيام سعادتها شأن كل متملق لا همة له ولا انسانية.

ولا تظنن أيها القارئ أني ننكر (كذا) على الملك زواج اثنتين من كون أخ السيدة صلوحة بية المذكورة حاشا وكلا! شريعتنا المطهرة أحلت لنا الزواج بأربعة لكنه بالعدل. والذي رأيته لا عدل ولا شائبة عدل في هذا الزواج، فأنى يوجد العدل وما هو العدل؟ الزوجة الأصيلة الأميرة الشريفة سجينة الظلم والاستبداد والخادمة الوضيعة تتقلب في بساط العز وطيب المهاد! شريعتنا السمحة الزكية لا تسمح لأي زوج كان أن يفعل مثل هاته الفعلة الشنيعة لعدم توفر شروط العدالة فيه لقوله تعالى : «ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن» [1] وكما قال تعالى : «فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف» [2]، ولا يخفى ما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف من الايصاء بالعدل بين الزوجات والكفاءة بين الضرات.

وانما القصد من ذلك هو تبين سخافة أفكار هذا الأمير الذي هو عاجز عن العدل بين زوجته فضلا عن رعيته المترامية الأطراف، المستعبدة تحت رق الحماية الاجنبية. فما أعظمها من حسرة وما أكبرها من بلية وسخافة أفكار رجال دولته لعدم تبصرهم بحالة أميرهم وسعيهم لهدم شرفه وسيرهم (كذا) اضمحلال هذا الملك

1) سورة الطلاق : الآية 6.

3) سورة الطلاق : الآية 2.

باسعافهم لرجال الحماية باذلين جهدهم فيما يعود على هاته المملكة بالاستعباد والخراب، يتمنون انتشالها من ايدي ملوكها للاستعمار مخالين قوله صلى الله عليه وسلم : «الدين النصيحة، قالوا لمن يا رسول الله : قال لله ولرسوله وأولي الأمر منكم». [1]

1) الحديث السابع من الأربعين حديثا النووية، ونصه الصحيح : «عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الدين النصيحة، قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم»، رواه مسلم.

أنساب عائلات قيروانية

من إعداد الشيخ الوالد محمد الطيب الطويلي تقبّله الله برضوانه ورحمته ضمن كنش قد تلف كثير من أوراقه الخاصة بالعائلات القيروانية وأنسابها.

ـ المذحجيون، نسبة إلى مذحج أبو قبيلة من اليمن :

عائلة الطوير، عائلة الطويلي، عائلة الأصرم ، عائلة الحربي، عائلة الرنان.

ـ التميميون، نسبة الى بني تميم :

عائلة أبو الاجفان، عائلة الجودي، عائلة المعيلل، عائلة المرابط (بالحومة الجبلية)، عائلة المجرابة، عائلة قرفالة، عائلة خليف، عائلة بن زينة.

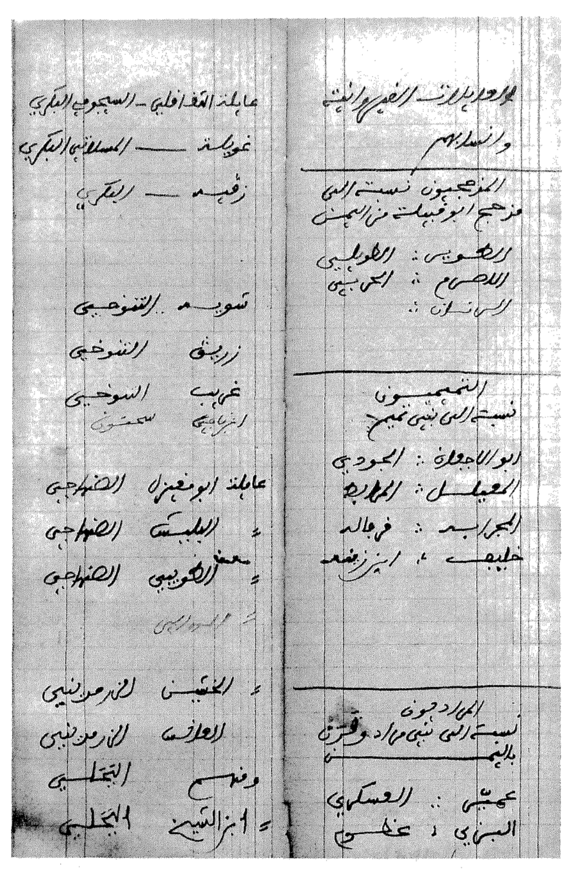
ـ المراديون : نسبة إلى بني مراد :

عائلة عميّر، عائلة العسكري، عائلة البزّي، عائلة عظوم.

ـ [أنساب عائلات أخرى] :

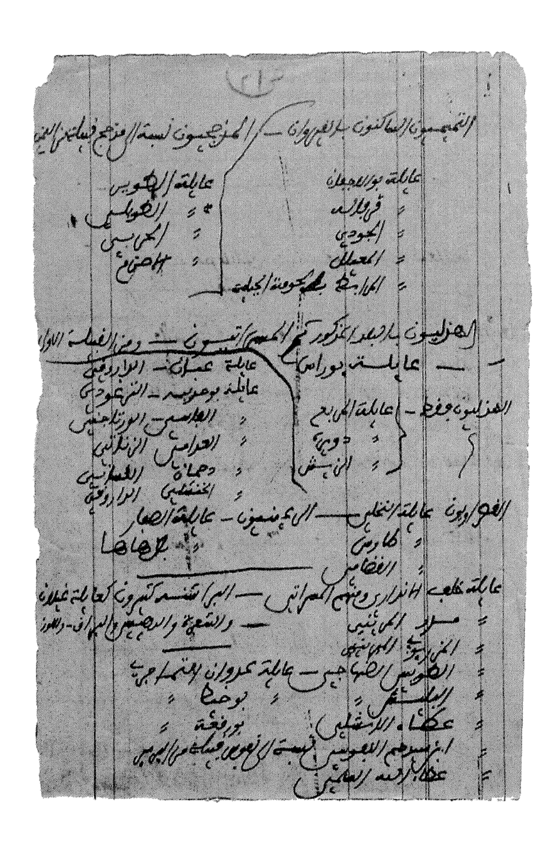
- عائلة التفافلي السيجومي البكري،
- عائلة غويلة المسلاتي البكري،

- عائلة زقية البكري،
- عائلة شويه التنوخي،
- عائلة زريق التنوخي،
- عائلة غريب التنوخي،
- عائلة أبو مغيزل الصنهاجي،
- عائلة البليش الصنهاجي،
- عائلة الطويبي الصنهاجي،
- عائلة الخشين الزرمديني
- عائلة العانس الزرمديني،
- عائلة ابن الشيخ البجلي،
- عائلة الزردي التلمساني،
- عائلة الدعلول الكنايسي،
- عائلة العامري المحمودي الكنايسي،
- عائلة عبان الداروقي،
- عائلة الخنشلي الداروقي،
- عائلة الجباس المرداسي،
- عائلة الهرقام المرداسي،
- عائلة الفراتي المرداسي،
- عائلة شواري الصفاقسي،
- عائلة الدندان الصفاقسي،
- عائلة الحامي البطمي،
- عائلة طعم الله البطمي،
- عائلة كميشة البطمي،
- عائلة حمامة البطمي،
- عائلة ابن سعد البطمي،
- عائلة البريشني الأندلسي،
- عائلة الربعي اللخمي،
- عائلة اللّبي اللخمي،
- عائلة الصدفي البنجريري،
- عائلة دوّد البنجريري،
- عائلة خضر البرشاني،
- عائلة ابن خديجة البرشاني،
- عائلة البرّاق البرشاني،
- عائلة غيلان البرشاني،
- عائلة الشفرة البرشاني،
- عائلة خصيب البرشاني،
- عائلة القدّاح البرشاني،
- عائلة اللوز البرشاني،



صفحة من كنش الشيخ الوالد تغمده الله برضوانه عن العائلات القيروانية.

- عائلة الدهيسي البرشاني،
- عائلة بوعبيد البرشاني،
- عائلة قعيب الجعفري،
- عائلة ابن الحمراء المساكنى الروحي،
- عائلة أبو غابة الكندى،
- عائلة ڤرقب الكندي
- عائلة الحطاب الهواري،
- عائلة العزعوزي الهواري،
- عائلة الأنقر المهدوي،
- عائلة خلف المسراتي،
- عائلة ابوراس المسراتي،
- عائلة الشنيتي المسراتي،
- عائلة جاء وحده المسراتي،
- عائلة بن هادية المسراتي،
- عائلة مزادم المسراتي،
- عائلة الزيش الهذلي،
- عائلة المربع الهذلي،
- عائلة ابوراس الهذلي،
- عائلة دويرة الهذلي،
- عائلة النجار الهذلي،
- عائلة المعلول الهذلي،
- عائلة الوسلاتي العيشوشي
- عائلة البكوش البلوي،
- عائلة الحداد البلوي،
- عائلة المزقيدى الجبنياني،
- عائلة بن عبد العفو المانسي،
- عائلة بن غانم المانسي،
- عائلة المعلول المانسي،
- عائلة بودن القماطي،
- عائلة دهان القماطي،
- عائلة ابن عبد الفتاح المجاهدي،
- عائلة مزهود اللواتي،
- عائلة العياشي اللواتي،
- عائلة سعد الله المنياوي،
- عائلة الرنان المنياوي،
- عائلة فلح المنياوي،
- عائلة زريعة البلتشي،
- عائلة أبيسنينة البلتشي،



صفحة من كنش آخر للشيخ الوالد تغمده الله برضوانه عن العائلات القيروانية.

- عائلة بشير البلتشي،
- عائلة جرفال البلتشي،
- عائلة بوهاها الرعيني،
- عائلة الصفار الرعيني،
- عائلة عجاج المكاري الورداني،
- عائلة الغرداوي التاغوتي،
- عائلة بوحديبة التاغوتي أو الترغودي،
- عائلة ابورقعة التماجري،
- عائلة بوخيط التماجري،
- عائلة عدوان التماجري،
- عائلة النخلي القصراوي،
- عائلة طاوس القصراوي،
- عائلة الغضامي القصراوي،
- عائلة فورار القصراوي،
- عائلة قريبع القصراوي،
- عائلة زوقار القصراوي،
- عائلة خلف الأنداري،
- عائلة بوهلال الأنداري،
- عائلة الدرواز الأنداري،
- عائلة دحمان الغساني،
- عائلة الفاسي الورتاجني،
- عائلة بوحافر الزناتي،
- عائلة العدامي الزناتي،
- عائلة التريكي العدامي،
- عائلة عطاء الانشلي،
- عائلة المزريوي المريني،
- عائلة مدّر المريني،
- عائلة سلاّم النفوسي البربري،
- عائلة ابن سيدهم النفوسي البربري،
- عائلة عاشوْر النفوسي البربري،
- عائلة التهلولة المثلوثي،
- عائلة الديماسي المنستيري،
- عائلة جراد العالي،
- عائلة كشاط السراجي،
- عائلة قصد اللهالسراجي،
- عائلة بوحوال الحكيمي،
- عائلة غيث الحكيمي،
- عائلة حلوس التونسي،

- عائلة عامر اليحصبي،
- عائلة الحليوي العراقي،
- عائلة المانع العراقي،
- عائلة العجرة الجفني (من بلد الجفنة بالقيروان قرب هنشير المسعودية)،
- عائلة كشريدالجفني
- عائلة الخضراوي الأنصاري،
- عائلة العلاني الأنصاري،
- عائلة السخيري الأنصاري،
- عائلة الرصاع الأنصاري،
- عائلة غرس الله السلامي،
- عائلة جعيدان السلامي،
- عائلة بن سالم السلامي.

المؤلف

* أستاذ التعليم العالي في اللغة والآداب العربية بجامعة منوبة.
* دكتور دولة ومبرز في اللغة والآداب العربية.
* مؤلف أكثر من سبعين كتابا في البحث والتحقيق والدراسة والمقالة والقصة.
* ولد بحومة الجامع بالقيروان، وتلقى فيها تعليمه الابتدائي بمدرسة الأسوار. والثانوي بالمدرسة التكميلية ثم بالمعهد الصادقي بتونس والعالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ومعهد الصحافة وعلوم الإخبار بتونس.
* متحصل على الباكالوريا الجزء الأول علوم والثاني فلسفة وآداب، والإجازة في اللغة والآداب العربية وشهادة الكفاءة في البحث وشهادة الكفاءة في الصحافة وشهادة اللّغات والدراسات الأجنبية.
* متحصل على شهادة التبريز في اللغة والآداب العربية ودكتورا الدولة في اللغة والآداب العربية بملاحظة مشرف جدا.
* تولى سابقا عضوية المجالس العلمية بجامعة سوسة وكلية الآداب بالقيروان ومعهد الصحافة وعلوم الإخبار.
* درّس بالمعاهد الثانوية ثم بكلية الآداب 9 أفريل بتونس وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان وكلية الآداب ومعهد الصحافة وعلوم الإخبار بجامعة منوبة.
* درّس بجامعة هانكوك للغات والدراسات الأجنبية بسيول بكوريا الجنوبية وجامعة قطر.
* أستاذ زائر بجامعة هافرد بالولايات المتحدة الأمريكية والجامعة العثمانية بحيدر أباد بالهند.

* عضو لجان الدكتورا والتأهيل والماجستير بجامعة منوبة

* أطر العديد من الاطروحات في المستويات المختلفة بتونس والخارج

* شارك في مناقشة العديد من أطروحات الدكتورا والماجستير وملفات التأهيل.

* له ركن أسبوعيبالملحق الثقافي بجريدة الحرية، وبرامج إذاعية في الإذاعة الوطنية أكثر من عشرين سنة. وأذيعت له مسلسلات مسرحية عدة سنوات.

* اضطلع بأمانة تحرير مجلة الحياة الثقافية وأشرف على قسم الملتقيات والندوات العلمية بوزارة الثقافة أوائل الثمانينات.

* عضو اتحاد الكتاب التونسيين وجمعية حقوق المؤلفين والفنانين بتونسوجمعيات علمية و ثقافية عديدة.

*رئيس وحدة البحث في تاريخ الصحافة التونسية و المغاربية بمعهد الصحافة و علوم الإخبار.

*رئيس اللجنة الثقافبة برادس سابقا.

من مؤلفات أحمد الطويلي عن تونس

- الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي.
- الأدب بتونس في العهد الحفصي.
- تاريخ مدينة تونس الثقافي والحضاري.
- تاريخ القيروان الثقافي والحضاري.
- في الحضارة العربية بتونس.
- دراسات ووثائق عن الحركة الاصلاحية بتونس.
- المواسم والاعياد بتونس.
- رادس عبر العصور.
- مائة رواية تونسية.
- تونس ملهمة الشعراء.
- بلوغ الأماني في شرح قصيدة الدماميني في مدح سلاطين بني حفص.
- شخصيات تونسية.
- الضوء المبين في التعريف بأولياء تونس الصالحين.
- ديوان عبد اللطيف الطوير القيرواني.
- ديوان أحمد بن أبي الضياف
- عبد الرحمان بن خلدون.
- أبو الحسن علي الحصري القيرواني.
- البشير خريف حياته ورواياته.
- محمود المسعدي وكتابه «حدث أبو هريرة قال».
- الجنرال حسين حياته وآثاره.

- زين العابدين السنوسي.
- الطاهر الحداد رائد الحداثة في العالم العربي.
- صالح سويسي القيرواني رائد الإصلاح الاجتماعي بتونس.
- التسامح والإصلاح في فكر المصلحين التونسيين.
- مناقب أصحاب أبي الحسن الشاذلي الأربعين.
- صفحات من تراثنا الحضاري.
- الصادقية، الوزير خيرالدين مؤسسا ومحمد العربي زروق مديرا.
- أعلام من المغرب والمشرق.
- مالك بن أنس وأئمة السنة بإفريقية..
- الصداق القيرواني.

الفهرس

هذا الكتـاب

عن الصداق القيرواني الذي كان جاريا به العمل بإفريقية خاصة بالقيروان منذ الفتح الإسلامي إلى صدور مجلة الأحوال الشخصية بتونس إثر الاستقلال. كانت المرأة تشترط فيه على زوجها أن لا يتزوج عليها بثانية وإلاّ فهي تطلقها عليه أو تطلق نفسها منه، إذ لم يكن تعدد الزوجات مقبولا عامة في مجتمعنا التونسي، وتمثل مجلة الأحوال الشخصية في الحقيقة امتدادا للروح الإجتماعية الحضارية السائدة في بلادنا إلى اليوم. ويضمّ هذا الكتاب أيضا مقالات عن الزواج بتونس، عاداته ومراسمه، حفلاته قديما و[illegible] وزواج بعض الملوك والأميرات في القديم بتونس.

الثمن: 10 د